آليساندرو باريكو

مستر غوين

ترجمة

د. أماني فوزي حبشي

منشورات الجمل

رواية

مكتبة

مكتبة ٨٨٧

مكتبة 887
سُر مَن قرأ

آليساندرو باريكو: مستر غوين

مكتبة
20 6 2022
t.me/t_pdf

آليساندرو باريكو: مستر غوين، ترجمة: د. أماني فوزي حبشي
الطبعة الأولى ٢٠٢١
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠٢١
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Alessandro Baricco: Mr. Gwyn
© 2011, Alessandro Baricco
All rights reserved

© *Al-Kamel Verlag 2021*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

آليساندرو باريكو

مكتبة | 887
سُر مَن قرأ

مستر غوين

ترجمة
د. أماني فوزي حبشي

منشورات الجمل

مكتبة
t.me/t_pdf

١.

في أثناء سيره في ريجينت بارك، في طريق يختاره دائماً، بين الطرق الكثيرة ـ شعر جاسبر غوين فجأة بوضوح بأن ما يفعله كل يوم ليكسب عيشه لم يعد مناسباً له. كانت تلك الفكرة قد خطرت له بالفعل مرات سابقة، ولكن لم تكُن قط بهذا الصفاء وكل هذا اللطف.

وهكذا، عاد إلى المنزل وأخذ يكتب مقالة، طبعها، ثم وضعها في مظروف، وأخذها بنفسه، وهو يعبر المدينة إلى إدارة تحرير «الغارديان». كانوا يعرفونه. من حين لآخر كان يتعاون معهم. طلب منهم أن ينتظروا أسبوعاً قبل أن ينشروها.

كانت المقالة عبارة عن قائمة من اثنين وخمسين شيئاً كان جاسبر غوين يعد نفسه بألا يفعلها بعد ذلك أبداً. الشيء الأول أن يكتب مقالات للغارديان. الشيء الثالث عشر أن يقابل التلاميذ وهو يتظاهر بالثقة في نفسه. الواحد وثلاثون أن يتركهم يصورونه وهو يضع يده على ذقنه في وضع المُفكر. الشيء السابع وأربعون، أن يبذل جهده في التأدب مع الزملاء الذين في حقيقة الأمر يحتقرونه. والشيء

الأخير: أن يؤلف كتباً. وبطريقة ما كان يغلق الستار الأخير الذي كان قد تركه في البند قبل الأخير: أن ينشر كتباً.

الجدير بالذكر أن جاسبر غوين كان في تلك اللحظة كاتباً يلقى رواجاً في إنجلترا، ومعروفاً على استحياء في الخارج. كان قد بدأ منذ اثني عشر عاماً برواية بوليسية تقع أحداثها في ريف ويلز في زمن تاتشر: قضية عمليات إطلاق نار غامضة. بعدها بثلاثة أعوام نشر رواية قصيرة كانت تحكي عن شقيقتين ترغبان في ألا ترى إحداهما الأخرى قط، وفي مئة صفحة حاولتا أن تحققا رغبتهما تلك البسيطة، إلا أن الأمر بدا مستحيلاً. وينتهي الكتاب بمشهد رائع على مرسى في الشتاء. بالإضافة إلى بحث صغير عن شيسترتون، وقصتين نُشرتا ضمن مجموعات قصصية مختلفة، كان عمل جاسبر غوين يُختتم برواية ثالثة، طولها خمسمئة صفحة. كان الاعتراف الهادئ للاعب مسايفة أوليمبي مُسن، قبطان بحري سابق، ومُقدم سابق لمتنوعات إذاعية. كان مكتوباً باستخدام ضمير المُخاطب وعنوانه: *أمام الفنارات المطفأة*. كان يبدأ بتلك العبارة: «كثيراً ما فكرت في الزرع والحصاد».

وكما لاحظ كثيرون، كانت الروايات الثلاث مختلفة تماماً فيما بينها بحيث يصعب الاعتراف بها كثمار لليد نفسها. كانت الظاهرة عجيبة إلى حد كبير، ولكن هذا لم يمنع جاسبر غوين من أن يصبح في فترة وجيزة كاتباً معترفاً به جماهيرياً ويحظى بإحترام جزء كبير من النقاد. كانت موهبته في الحكي لا يعتريها أي شك، بل وكانت السهولة التي بها يتمكن من الدخول في ذهن الشخصيات ويعيد بناء مشاعرهم تثير الحيرة. كان يبدو كأنه يعرف العبارات التي سيقولها كل منهم، وأنه يفكر مقدماً بذهنهم. وكان بديهيًا أن يتنبىء له الكثيرون، في تلك الأعوام، بمستقبل مهني رائع.

لكن في عمر الثالثة والأربعين يكتب جاسبر غوين للجارديان مقالاً يعدد فيه اثنين وخمسين شيئاً لن يفعلها أبداً بدءاً من ذلك اليوم. وكان الشيء الأخير هو: تأليف الكتب.

كان مستقبله المهني الرائع قد انتهى.

٢.

في الصباح الذي خرجت فيه المقالة على صفحات «الجارديان» ـ بوضوح شديد في ملحق الأحد ـ كان جاسبر غوين في إسبانيا، في غرناطة: بدا له من المناسب، في ظل تلك الظروف، أن يضع بينه وبين العالم مسافة ما. كان قد اختار فندقاً صغيراً متواضعاً جدّاً، فلا يوجد هاتف في حجرته، وهكذا في ذلك اليوم كانوا لا بد أن يصعدوا ليخطروه بأن هناك مكالمة له، أسفل، في الاستقبال. نزل هو بالبيجاما واقترب بلا رغبة من هاتف قديم مدهون باللون الأصفر موضوع على طاولة صغيرة من الخشب. وضع السماعة على أذنه وكان ما يسمعه هو صوت توم بروس شيبرد، وكيله.

ـ ما هذه الحكاية يا جاسبر؟

ـ أي حكاية؟

ـ الاثنين وخمسين شيئاً. لقد قرأتها هذا الصباح، أعطتني لوتي الجريدة بينما لا أزال في الفراش. لوهلة كدت أصاب بجلطة.

ـ ربما كان يجب عليَّ إخبارك.

ـ لا تقل لي إنه شيء جاد. إنه استفزاز، رفض، ما هذا بحق السماء؟

ـ لا شيء، مجرد مقالة. ولكن كل شيء حقيقي.

ـ بأي معنى؟

ـ أريد أن أقول إنني كتبته بجدية، وإن هذا هو ما قررته بالتحديد.

ـ هل تقول لي إنك ستتوقف عن الكتابة؟

ـ أجل.

ـ ولكن هل جننت؟

ـ أتعرف؟ لا بد أن أذهب الآن.

ـ انتظر لحظة يا جاسبر، لا بد أن نتحدث عن هذا، إذا لم تتحدث معي أنا وكيلك...

ـ لا يوجد شيء لأضيفه، سأتوقف عن الكتابة وحسب.

ـ هل تعرف شيئاً يا جاسبر، هل تسمعني؟ هل تعرف شيئاً؟

ـ أجل، أسمعك.

ـ إذًا اسمعني، لقد سمعت تلك العبارة عشرات المرات من عدد من الكتاب الذي لا يمكنك حتى أن تتخيله، سمعتها حتى من مارتن آميس، هل تصدقني؟ ربما منذ عشر سنوات، قال لي مارتن آميس الكلمات نفسها، سأتوقف عن الكتابة، وذلك مجرد نموذج، يمكنك أن تضربه في عشرين، هل تريد أن أسرد لك القائمة؟

ـ لا أعتقد أن هذا ضروري.

ـ هل تعرف شيئاً؟ لا يوجد من توقف بالفعل، لا يوجد من يتوقف.

ـ حسنٌ، ولكنني الآن لا بد أن أذهب يا توم.

ـ ولا واحد.

ـ حسنٌ.

ـ المقال جيد على كل حال.

ـ شكراً.

ـ حجر حقيقي في مستنقع راكد.

ـ لا تقل تلك العبارة، أرجوك.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء. سأذهب الآن.

ـ سأنتظرك في لندن، متى ستحضر؟ ستكون لوتي في غاية السعادة لرؤيتك.

ـ سأنهي المكالمة الآن يا توم.

ـ جاسبر يا أخي العزيز، لا تمزح.

ـ لقد أنهيت المكالمة يا توم.

قال هذه العبارة الأخيرة بعد أن وضع السماعة ولذلك لم يسمعها توم بروس شيبرد.

٣.

في الفندق الإسباني الصغير مكث جاسبر غوين، مستمتعاً، لمدة اثنين وستين يوماً. في اللحظة التي كان يدفع فيها الحساب ظهر في نفقاته الزائدة اثنان وستون فنجاناً من اللبن البارد، اثنان وستون كوب ويسكي، مكالمتا تليفون، وحساب مرتفع من المغسلة (مئة وتسع وعشرون قطعة)، وحساب شراء مذياع ترانزيستور... وهو ما يمكن أن يلقي بضوء ما على ميوله.

نظراً إلى المسافة، والعزلة، لم يعد جاسبر غوين في أثناء إقامته في غرناطة للتفكير في موضوع مقالته إلا نادراً، بينه وبين نفسه. فقط حدث، في يوم ما، أن قابل سيدة سلوفاكية، تبادل معها حديثاً

ممتعاً، في الحديقة الداخلية لأحد المتاحف. كانت متألقة وواثقة من نفسها، كانت تتحدث بإنجليزية لا بأس بها. قالت له إنها تعمل في جامعة لوبيانا في قسم التاريخ الحديث والمعاصر. كانت في إسبانيا لتُجري بعض الأبحاث: كانت تعمل على قصة سيدة إيطالية نبيلة تجولت في أوروبا بحثاً عن رفات في نهاية القرن التاسع عشر.

ـ هل تعرف أن تهريب الرفات، في تلك الأعوام، كان هواية بعض الطبقات الأرستقراطية الكاثوليكية؟ شرحت له.

ـ حقاً؟

ـ قليلون يعرفون ذلك، ولكنها قصة رائعة.

ـ احكيها لي.

تناولا العشاء معاً، وفي أثناء تناول الحلوى، بعد أن قصت له طويلاً عن عظام أطراف وسُلاميات الشهداء، بدأت المرأة السلوفاكية تتحدث عن نفسها، وخصوصاً عن كم تشعر بأنها محظوظة لأنها تعمل كباحثة، تلك المهنة التي تعدها في غاية الجمال. وأضافت أنه بطبيعة الحال كان كل ما «يحيط بتلك المهنة» بشعاً، الزملاء والطموحات، الضآلة والنفاق، وكل شيء. ولكنها قالت أيضاً إنه بالنسبة إلى ما يخصها لن يكفيها أربعة مساكين ليذهبوا عنها الرغبة في الدراسة وفي الكتابة.

ـ أنا سعيد أن أسمعك تقولين هذا. علق جاسبر غوين.

عندئذٍ سألته المرأة عن مهنته. تردد جاسير غوين قليلاً، ثم انتهى أمره بأن كذب قليلاً. قال إنه لمدة اثني عشر عاماً كان يعمل مهندس ديكور ولكنه توقف منذ أسبوعين. بدا على المرأة الاستياء وسألته عن الأسباب التي دفعته لترك عمل يبدو ممتعاً جدّاً. أشار جاسبر غوين إشارة مبهمة في الهواء. ثم قال عبارة غير مفهومة.

ـ في أحد الأيام أدركت أنه لم يعد يهمني أي شيء، وأن كل شيء يؤلمني إلى حد الموت.

بدا على المرأة الفضول، ولكن جاسبر غوين كان بارعاً في أن يحمل الحوار بعيداً حول موضوعات أخرى، منزلقاً في حوار جانبي حول العادة السيئة في وضع الموكيت في الحمام، ثم استرسل في الحديث عن ريادة الحضارات الجنوبية، حيث كانت أول من عرف المعنى الدقيق لمصطلح *إضاءة*.

وفي وقت متأخراً جدّاً في ذلك المساء تصافحا، ولكنهما فعلا ذلك ببطء شديد حتى أصبح لدى المرأة السلوفاكية الوقت لتجد الكلمات المناسبة لتقول إنه سيكون جميلاً أن يقضيا تلك الليلة معاً.

لم يكُن جاسبر غوين متأكداً جدّاً من هذا، ولكنه تبعها إلى غرفتها في الفندق. ثم، بغموض، كان من السهل خلط عجلتها هي مع حرصه هو في فراش إسباني.

بعد ذلك بيومين، عندما رحلت المرأة السلوفاكية، ترك لها جاسبر غوين قائمة أكملها من ثلاثة عشر صنفاً من الويسكي الأسكتلندي.

سألته: ما هذا؟

ـ أسماء جميلة، أهديها لكِ.

أمضى جاسبر غوين بعدها في غرناطة ستة عشر يوماً. ثم رحل هو أيضاً، ونسي في الفندق الصغير ثلاثة قمصان، جوروباً...، عصا للمشي برأس من العاج، صابون حمام سائلاً برائحة الصندل، ورقمي هاتف مكتوبين بالقلم الرصاص على الستار البلاستيك للدش.

٤

عند عودته إلى لندن، قضى جاسبر غوين الأيام الأولى في السير في طرق المدينة بطريقة طويلة واستحواذية، بالقناعة الممتعة بأنه قد صار غير مرئي. نظراً إلى أنه توقف عن الكتابة، ففي قلبه توقف أيضاً عن أن يكون شخصية عامة. لم يكُن هناك سبب لأجله سيلاحظه الناس، الآن وقد أصبح من جديد مثل أي شخص آخر. أخذ يرتدي ملابسه بلا حرص، وعاد ليفعل أشياءً كثيرة صغيرة دون أن يقلق من أن تكون تصرفات غير مناسبة في حالة أن تعرف عليه فجأة أحد القراء. الوضع الذي يتخذه وهو جالس على منضدة البار، على سبيل المثال. أو أن يركب الأتوبيس بلا تذكرة. أن يتناول الطعام بمفرده في مكدونالدز. من حين لآخر كان هناك من يتعرف عليه، عندئذٍ كان ينكر أنه هو.

كان هناك عديد من الأشياء الأخرى التي لم يعُد عليه القلق بشأنها. كان كمثل واحد من تلك الخيول، التي بمجرد أن يسقط الجوكي، تعود إلى الوراء، في شرود، بهرولة بسيطة، بينما الخيول الأخرى ما زالت تكاد تُفجر قلبها وهي تتبع المسار وأي أمر يصل إليها. كانت متعة حالة نفسية مثل هذه لا نهائية. عندما كان يحدث أن تقطع طريقه مقالة في صحيفة أو واجهة زجاجية لإحدى المكتبات تُذكره بالسباق الذي اعتزله للتو، كان يشعر بأن قلبه خفيف، وبأنه يشعر بالنشوة الطفولية لظهيرة يوم السبت. منذ أعوام طويلة لم يشعر بمثل تلك الراحة.

لهذا أيضاً تأخر بعض الشيء في أن يتخذ الإجراءات الخاصة بحياته الجديدة، في محاولة إطالة ذلك الطقس الشخصي للإجازة. كانت الفكرة، التي نضجت في أثناء إقامته في إسبانيا، بأن يعود إلى

مهنته التي سبقت تأليف الروايات. لن يكون هذا صعباً ولا سيئاً. بل كان يرى في ذلك نوعاً من الأناقة الشكلية، شيئاً كالمقطوعة الغنائية. ولكن لا شيء كان يدفعه للاستعجال على العودة، لأن جاسبر غوين كان يعيش بمفرده، ولم تكُن لديه عائلة، فقد كان ينفق قليلاً، وبالتأكيد كان يمكنه أن يعيش في هدوء لمدة عامين آخرين دون حتى أن يستيقظ في الصباح. وهكذا أجّل الأمر، وكرّس نفسه لتصرفات عشوائية في ممارسات كان قد أجّلها منذ فترة.

تخلص من الصحف القديمة، وكان يأخذ القطار في اتجاهات غامضة.

٥.

ولكن ما حدث له بمرور الأيام، أنه وجد نفسه فريسة لنوع واحد من الضيق، اجتهد ليفهمه في البداية، وفقط بمرور بعض الوقت تعلم التعرف عليه: على الرغم من صعوبة الاعتراف به، فإنه كان ينقصه فعل الكتابة، والعناية اليومية التي كان بها ينظم أفكاراً في الشكل المستقيم للعبارة. لم يكُن يتوقع ذلك، ودفعه ذلك على التفكير. كان نوعاً من الضيق الصغير الذي كان يتقدم نحوه كل يوم ويزداد سوءاً. وهكذا، رويداً رويداً، بدأ جاسبر غوين في التساؤل إذا كان الوقت قد حان ليفحص مهناً هامشية يمكن من خلالها ممارسة الكتابة دون أن يعني هذا، بالضرورة، العودة الفورية للأشياء الاثنين والخمسين التي كان قد وعد نفسه بألا يفعلها قط.

قال لنفسه، كتيبات رحلات. ولكن سيكون عليه السفر.

فكر في أولئك الذين يكتبون الكتيبات الإرشادية للأدوات الكهربائية، وتساءل إذا كانت ما زالت توجد، في مكان ما في العالم، مهنة كتابة الخطابات لمن هم غير قادرين على عمل ذلك.

فكر، ربما مترجم. ولكن من أي لغة؟

في النهاية، الشيء الوحيد الواضح الذي بدر إلى ذهنه كلمة واحدة: ناسخ. سيعجبه أن يعمل كناسخ. لم تكُن مهنة حقيقية، كان يدرك ذلك، ولكن كان هناك بريق في تلك الكلمة يقنعه، ويدفعه إلى الاعتقاد بأنه يبحث عن شيء محدد. كانت هناك سرية في الحركة، وصبر في الأساليب، خليط من التواضع والعظمة. لم يكُن يرغب في عمل شيء سوى هذا: ناسخ. كان متأكداً من أنه يمكنه أن يفعل ذلك ببراعة.

في محاولة لتخيل ما يمكنه، في العالم الفعلي، أن يتوافق مع كلمة ناسخ، أخذ جاسبر غوين يدور حول نفسه أياماً كثيرة، يوماً بعد الآخر، بطريقة غير مؤلمة ظاهرياً. تقريباً لم يكُن يدرك ما يفعله.

٦.

من حين لآخر كانت تصل عقود ليوقعها، وكانت تشير إلى كتب كان قد كتبها بالفعل. عقود تجديد، ترجمات جديدة، تحويل الروايات لنصوص مسرحية. كان يتركها على المائدة، وفي النهاية كان يبدو له من الواضح أنه لن يوقعها أبداً. فقد اكتشف، مضطرباً إلى حدٍّ ما، أنه لم يكُن فقط يرغب في ألا يؤلف كتباً، ولكن لم يكُن يرغب حتى في أن يكون قد كتبها. أي، أنه استمتع بتأليفها، ولكنه لم يكُن يتمنى على الإطلاق أن تعيش رغم قراره بأن يتوقف عن الكتابة، بل يضايقه واقع أن تلك الكتب، تسير، بقوة خاصة بها، إلى حيث وعد هو نفسه بألا تطأ قدماه أبداً، بدأ يلقي بالعقود دون حتى أن يفتحها. من حين لآخر كان توم يرسل له خطابات من معجبين كانوا يشكرونه بأدب على تلك الصفحة، أو على قصة

بعينها. حتى هذا كان يضايقه، ولم يكُن ينسى قط أن يسجل أن أياً منهم لا يشير لصمته، كأنهم لا يعرفون شيئاً عنه. بضع مرات أخذته الحماسة للرد. كان يشكر، بدوره، بكلمات بسيطة. ثم كان يشير أنه قد توقف عن الكتابة ويرسل سلامه.

لاحظ أن أحداً لم يجب عن تلك الخطابات.

ولكن، كان يعاوده باستمرار ذلك الاحتياج لأن يكتب، وافتقاد تلك العناية اليومية التي كان بها ينظم أفكاره في شكل مستقيم لعبارة. تلقائيّاً إذًا، أصبح يُعوض ذلك النقص بطقس خاص به، الذي بدا يتميز ببعض الجمال: أخذ يكتب ذهنياً، بينما يسير، أو يستلقي فوق فراشه، والضوء مطفأ، منتظراً أن يجيئه النوم. كان يختار الكلمات، ويبني العبارات. كان يمكن أن يحدث له أن يستمر لعدة أيام خلف فكرة بعينها، ويصل إلى أن يكتب في رأسه صفحات كاملة، كان يحلو له، بعد ذلك، أن يرددها، أحياناً بصوت مرتفع. كان يمكنه، بهذه الطريقة، أن يطرقع أصابعه أو أن يقوم ببعض التدريبات الرياضية، التدريبات نفسها. كان شيئاً جسمانياً، وكان يعجبه.

في إحدى المرات حدث له أن كتب، بهذه الطريقة، مباراة بوكر كاملة. وكان أحد اللاعبين طفلاً.

كان يعجبه، بشكل خاص، أن يكتب بينما ينتظر في المغسلة، وسط الأسطوانات التي تدور، مع إيقاع المجلات المُتصفَحة في شرود على الأقدام المتشابكة للسيدات التي تبدو أنها لا تُغذي أي خيال سوى ذلك المتعلق بتفاصيل كواحلهن. في أحد الأيام وبينما كان يكتب ذهنيّاً حواراً بين عاشقين يشرح فيه الرجل أنه منذ الطفولة كانت لديه قدرة غريبة أن يحلم بالأشخاص فقط عندما كان ينام معهم، فقط *بينما* ينامان معاً.

ـ هل تريد أن تقول إنك كنت تحلم فقط بمن ينامون في فراشك؟ سألته المرأة.

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ أجل؟

ـ ما هذا الهراء؟

ـ لا أعرف.

ـ وإذا لم يكُن الشخص في فراشك لا تحلم به.

ـ أبداً.

عندئذٍ اقتربت منه فتاة سمينة، إلا أنها كانت أنيقة، هناك في المغسلة، وقدمت إليه هاتفاً نقالاً.

ـ لحضرتك، قالت له.

أمسك جاسبر غوين بالهاتف.

٧.

ـ جاسبر! هل وضعت المسحوق المُنعم؟

ـ أهلاً توم.

ـ هل أزعجك؟

ـ كنت أكتب.

ـ وهو المطلوب!

ـ ليس بذلك المعنى.

ـ لا يبدو لي أنه توجد معانٍ كثيرة، إذا كان المرء كاتباً فهو يكتب، هذا كل ما في الأمر. لقد قلت لك، لا أحد ينجح في أن يتوقف حقاً.

ـ توم، أنا في مغسلة.

ـ أعلم، إنك هناك دائماً. وفي المنزل لا تجيب.

ـ لا أحد يكتب كتباً في المغسلة، أتعرف ذلك، وبالتالي لن أكتبها أنا أيضاً.

ـ كذب. هات ما عندك. ماذا تكتب، قصة؟

كانت الملابس ما زالت في مرحلة الغسيل الأولية، ولم يكُن هناك أحد يتصفح المجلات. وهكذا فكر جاسبر غوين أن يحاول أن يشرح له. شرح لتوم بروس شيبرد أنه يحب أن يضع الكلمات في تسلسل، وأن يعشق العبارات، كأنه يطرقع أصابعه. يفعل ذلك في مغاليق ذهنه. فهو شيء يساعده على الاسترخاء.

ـ رائع! سآتي إليك، أنت تتحدث وأنا أسجل، وسيكون لدينا كتاب. لن تكون أول من استخدم هذا الأسلوب.

شرح له جاسبر غوين أنها ليست قصصاً، بل أجزاء، لا بداية لها ولا شيء يليها ـ سيكون من الأفضل أن نسميها «مشاهد».

ـ عبقري. لدي عنوان بالفعل.

ـ لا تقله لي.

ـ *مشاهد من كتب لن أكتبها قط*.

ـ لقد قلته.

ـ لا تتحرك، سأرتب شيئين وأصل.

ـ توم.

ـ قل لي يا أخي العزيز.

ـ من هذه الآنسة الأنيقة جدّاً؟

ـ ريبيكا؟ موظفة جديدة، ماهرة جدّاً.

ـ ماذا تفعل بالإضافة إلى أخذ الهواتف المحمولة إلى المغاسل؟

ـ تتعلم، لا بد من الانطلاق من شيء ما.

جاسبر غوين فكر أنه إذا كان هناك شيء يضايقه من أنه توقف عن أن يمتهن الكتابة، هي أنه لن يكون لديه سبب ليعمل مع توم بروس شيبرد. فكر في أن اليوم الذي سيتوقف هو عن أن يلاحقه بمكالماته، سيكون يوماً سيئاً. وتساءل إذا كانت هذه هي اللحظة المناسبة ليقول له هذا. هناك في المغسلة، ثم واتته فكرة أفضل.

أغلق الهاتف، وأشار إلى الفتاة السمينة، التي كانت قد ابتعدت بضع خطوات، تأدباً. لاحظ أن وجهها كان جميلاً جدّاً، وفيما عدا ذلك كانت قادرة على إخفاء العيوب بالاختيار الجيد للملابس. سألها إذا كان يمكن أن يترك معها رسالة لتوم.

ـ بالتأكيد.

ـ أريد أن أقول له إنه إن آجلاً أو عاجلاً سيكف عن أن يطاردني أينما ذهبت، وسأشعر أنا بالراحة نفسها التي يختبرها المرء عندما يُطفأ موتور الثلاجة في حجرة ما، حتى وإن كان لا يمكن تجنب الاضطراب، والشعور، الذي لابد وأنك تعرفينه، بأننا لا نعرف يقيناً ماذا علينا أن نفعل إزاء ذلك الصمت المفاجئ، وربما لا نكون حتى في الحقيقة قادرين على مواجهته. هل يبدو لك أنك فهمتِ؟

ـ لست متأكدة.

ـ هل تريدين أن أكرر لكِ ما قلته؟

ـ ربما من الأفضل أن أكتبه.

هز جاسبر غوين رأسه. وفكر، سيكون الأمر معقداً للغاية. أعاد فتح الهاتف. وصله صوت توم. لن يفهم قط كيف تعمل بالضبط تلك الأشياء.

ـ توم، التزم الصمت للحظة.

ـ جاسبر؟

ـ أريد أن أقول لك شيئاً.

ـ انطلق.

قالها له. بما في ذلك الجزء الخاص بالمبرد وكل ما يليه. سعل توم بروس شيبرد سعلة خفيفة، ثم التزم الصمت، شيء لم يكُن يفعله قط.

ثم رحلت الفتاة، وهي تسير كأنها تبحر، تلك الطريقة التي بها يرحل الممتلئون، ولكن قبل أن ترحل ابتسمت لجاسبر غوين وهي تصافحه، بضوء لامع في عينيها، بشفتين رائعتين وأسنان بيضاء.

٨.

إلا أن الشتاء بدا له طويلاً بلا فائدة، في ذلك العام، وبدأ يؤلمه واقع أنه يستيقظ شاعراً بالأرق في الصباح الباكر، ومازال الظلام خلف النوافذ.

في أحد الأيام، في يوم بارد وممطر، وجد نفسه جالساً في صالة الانتظار لإحدى العيادات، ومعه رقم في يده ـ كان قد أقنع الطبيب بأن يكتب له بعض الأدوية، كان يشعر بأنه ليس على ما يرام. بجواره ذهبت لتجلس سيدة معها تروللي الشراء ممتلئ ومظلة متهالكة تسقط منها باستمرار. كانت سيدة عجوزاً، ترتدي وشاحاً واقياً للمطر فوق رأسها. خلعته، عند لحظة ما، وبالطريقة التي أمسكت بها بشعرها كان هناك شيء ما، مثل آثار إغراء لم ينقطع في سنوات عديدة بعيدة. إلا أن المظلة استمرت في السقوط منها في كل مكان.

ـ هل يمكنني مساعدتك؟ سألها جاسبر غوين.

نظرت إليه المرأة وقالت إنهم في العيادات لا بد وأن يوفروا حاويات للمظلات، في الأيام الممطرة. وأضافت، يمكن لأحد أن يزيلها عندما تعود الشمس.

قال جاسبر غوين: إنه تفكير منطقي.

قالت المرأة: بالتأكيد.

ثم أخذت المظلة ووضعتها ممددة على الأرض. كانت تبدو كالسهم، أو الحد لشيء ما. وببطء كونت بئر ماء حولها.

ـ هل سيادتك جاسبر غوين أم مجرد شخص يشبهه؟ سألته المرأة.

فعلت ذلك بينما كانت تبحث في حقيبتها عن شيء صغير. وبيدها التي كانت تعبث هناك بالداخل رفعت نظرها لتتأكد إذا كان قد سمع السؤال.

لم يكُن جاسبر غوين يتوقع هذا، وهكذا قال أجل، إنه جاسبر غوين.

قالت المرأة: برافو، كأنه أجاب الإجابة الصحيحة في مسابقة. ثم قالت إن مشهد المرسى في رواية «الشقيقتان»، كان من أجمل ما قرأت في السنوات الأخيرة.

ـ أشكرك، قال جاسبر غوين.

ـ أيضاً حريق المدرسة في بداية الكتاب الآخر، ذلك الطويل، حريق المدرسة كان رائعاً.

ورفعت نظرها مرة أخرى لتنظر إلى جاسبر غوين.

وأضافت: لقد عملت كمدرسة.

ثم أخرجت من حقيبتها حلوتين، كانتا مستديرتين، بطعم الليمون وقدمت واحدة لجاسبر غوين.

ـ أشكرك، لا أريد بالفعل، قال هو.

ـ ولكنها لا شيء! قالت هي.

ابتسم هو وتناول الحلوى.

قالت: ليست لأنها كانت مبعثرة في الحقيبة يعني بأنها سيئة.

ـ لا بالتأكيد.

ـ ولكنني أرى أن الناس تميل لهذا التفكير.

فكر جاسبر غوين بأن الأمر هو كذلك بالفعل، وأن الناس لا تثق في حلوى موجودة في قاع الحقيبة.

ـ أعتقد أنها الظاهرة نفسها التي تجعل الناس قليلي الثقة بعض الشيء في الأيتام. قال.

التفتت المرأة لتنظر إليه في ذهول.

ـ أو في العربة الأخيرة من عربات المترو، قالت بسعادة غريبة في صوتها.

بدوا كاثنين كانا منذ الطفولة دائماً معاً في المدرسة، ويقومان الآن بتذكر أسماء زملاء الفصل، مستحضرين أيامهما من مسافات شاسعة. مرت لحظة ساحرة من الصمت بينهما.

عندئذٍ أخذا يتسامران وعندما جاءت الممرضة لتعلن للسيد غوين عن دوره، قال جاسبر غوين، إنه لا يستطيع الذهاب في تلك اللحظة.

قالت الممرضة: سيضيع دورك.

ـ لا يهم. يمكنني أن أمر في الغد.

ـ كما تحب. أجابته الممرضة ببرود. ثم نادت بصوت مرتفع على شخص يُدعى مستر فلوير.

وبدا الأمر عادياً جدّاً بالنسبة إلى السيدة ذات المظلة.

في النهاية، وجدا نفسيهما بمفردهما في صالة الانتظار، عندئذٍ قالت المرأة إنه حانت ساعة الرحيل. سألها جاسبر غوين إذا لم يكُن لديها فحص، أو شيء من هذا القبيل. لكنها قالت إنها تأتي إلى هنا لأنه مكان دافئ ولأنه يقع تماماً في وسط المسافة بين بيتها والسوبرماركت. بالإضافة إلى أنها تحب مشاهدة وجوه من عليهم القيام باختبار الدم، وخصوصاً الصائمين منهم. يبدون كأشخاص سُرق منهم شيء ما، قالت. بالفعل، أكد جاسبر غوين، باقتناع.

اصطحبها حتى المنزل، وهو يمسك لها بالمظلة مفتوحة، حيث لم تكُن تريد أن تترك عربة الشراء، وفي الطريق استمرا في التحدث، وعندما سألته المرأة عما يكتبه حالياً، لم يقل شيئاً. سارت المرأة قليلاً في صمت، ثم قالت، خسارة. قالتها بنبرة تحسر مخلصة إلى حد أن جاسبر غوين شعر بالألم.

سألته المرأة: هل انتهت الأفكار؟

ـ لا، لم يحدث ذلك.

ـ إذًا؟

ـ أرغب في أن أفعل شيئاً آخر.

ـ مثل ماذا؟

توقف جاسبر غوين.

ـ أعتقد أنه سيعجبني أن أعمل كناسخ.

فكرت المرأة قليلاً. ثم عاودت السير.

قالت: أجل يمكنني أن أفهم.

ـ حقاً؟

ـ أجل، إنها مهنة جميلة، مهنة النسخ.

ـ هذا ما فكرت فيه.

قالت هي: مهنة *نظيفة*.

تصافحا على الدرجات التي تؤدي إلى بيتها، ولم يخطر لأي منهما أن يطلب رقم هاتف الآخر، أو أن يشير إلى لقاء آخر. فقط، عند لحظة ما، قالت هي إنه يؤسفها أن تعرف أنها لن تقرأ أي كتاب جديد له. وأضافت أن ليس للجميع القدرة على اختراق رأس الناس كما كان يفعل هو، وأنها ستكون خسارة أن يغلق موهبته تلك في جراج ما، ويلمعها مرة واحدة في السنة، كما يفعلون بسيارات فولكس البيتلز القديمة. بدا كأنها انتهت، ولكنها في الواقع كانت لا تزال تحتفظ بشيء ما.

ـ أن تعمل كناسخ يعني أن تنسخ شيئاً ما، أليس كذلك؟ سألت.

ـ ربما.

ـ حسنٌ. ولكن لا تنسخ عقوداً أو أرقاماً، أرجوك.

ـ سأحاول أن أتجنب ذلك.

ـ حاول أن تعثر على شيء مثل أن تنقل الناس.

ـ أجل.

ـ كيف هم.

ـ أجل.

ـ سيناسبك هذا.

ـ أجل.

٩

مر تقريباً حوالي عام، عام ونصف منذ نشر مقال الجارديان، عندما بدأت حالة جاسبر غوين تسوء، من حين لآخر، وبدأ ذلك في شكل يصفه هو بأنه يفقد الوعي فجأة. كان يحدث له أن يرى نفسه من الخارج ـ هكذا يحكي ـ أو أن يفقد كل قدرة استيعاب محددة إذا لم يفقد الإدراك نفسه. أحياناً كان الأمر يثير رعبه. في أحد الأيام اضطر أن يدخل إلى كابينة تليفون، وبصعوبة طلب رقم توم. قال له متلعثماً إنه لم يعد يعرف أين هو.

ـ لا تخشَ شيئاً، سأرسل ريبيكا لتأخذك. أين أنت؟

ـ هذه هي المشكلة يا توم.

وانتهى الأمر بأن دارت الفتاة السمينة كل الحي بالسيارة حتى عثرت عليه. في ذلك الوقت مكث جاسبر غوين في كابينة التليفون، وهو ممسك السماعة بتشنج محاولاً ألا يموت. وليلهي نفسه أخذ يتحدث في التليفون ـ خطر له أن يرتجل مكالمة تليفونية للاعتراض على قطع المياه، لم يخبره أحد بذلك، وأدى ذلك إلى أضرار اقتصادية وأخلاقية كبيرة. وأخذ يردد: هل كان لا بد أن أنتظر الأمطار حتى أغتسل؟

شعر على الفور بتحسن، بمجرد أن دخل سيارة الفتاة السمينة.

بينما كان يعتذر لها، لم يستطع التوقف عن التحديق في يديها السمينتين اللتين كانتا تعتصران، والفعل هنا دقيق، المقود الرياضي للسيارة. فكر في عدم وجود تناسق، ولا بد أن هذه هي الخبرة التي كانت تمر بها تلك الفتاة مع جسدها في كل ثانية، لم يكُن هناك تناسق بين جسدها وبين كل شيء آخر.

ولكنها ابتسمت، ابتسامتها تلك الجميلة، وقالت إنه لشرف لها أن تتمكن من مساعدته. وأضافت، أن هذا حدث لها أيضاً من قبل، وأنها مرت بفترة كانت تشعر فيها بألم من ذلك النوع.

ـ هل كنتِ تفكرين فجأة أنكِ ستموتين؟

ـ أجل.

ـ وكيف طبتِ؟ سألها جاسبر غوين الذي كان حينئذٍ يسأل العلاج من أي شخص.

عادت الفتاة لتبتسم، ثم مكثت قليلاً في صمت، وهي تنظر إلى الطريق.

ـ لا، حسنٌ، قالت في النهاية، إنها أشياء خاصة.

ـ بالتأكيد. قال جاسبر غوين

كانت يداها تلتفان. ربما كان هذا هو الفعل الصحيح. كانت يداها تلتفان حول المقود الرياضي.

١٠.

في الأيام التي تلت ذلك، بذل جاسبر غوين جهداً كبيراً في أن يحتفظ بهدوئه، وفي محاولته ليعثر على علاج لتلك الأزمات التي كانت تزداد بمرور الوقت، عهد لنفسه بتدريب كان يتذكر أنه رآه في أحد الأفلام. كان عبارة عن محاولة لأن يحيا حياته ببطء، وذلك من خلال التركيز في كل تصرف. كقاعدة، يمكن اعتبارها قاعدة عامة ولكن جاسبر غوين كان له أسلوب في اتباعها يجعلها واقعية بطريقة مدهشة. وهكذا كان يرتدي حذاءيه وهو يحدق إليهما، أولاً، وهو يقيّم جمال خفتهما، ومُقدراً الخاصية الناعمة للجلد. وفي أثناء ربطهما كان يتجنب أن يترك نفسه للتصرف الآلي، وكان يراقب

بالتفصيل براعة أصابعه في التحرك، وكيف يصنع عقداً يُعجب بمتانتها. ثم كان ينهض، ومع الخطوات الأولى لم يكُن ينسى أن يسجل التماسك المتين للحذاء على عنق قدمه. كان يركز بالطريقة نفسها على الأصوات التي عادةً لا نهتم بها، فكان يعود ليستمع إلى ارتعاشة القفل، بحة الويسكي، أو أقل خشخشة للمفاصل. أوقات كثيرة كان يحلو له تسجيل الألوان، حتى وإن لم تكُن للأمر أي فائدة، وبصفة خاصة كان حريصاً على الإعجاب بتنويعات الألوان العشوائية التي تنتج عن الأشياء في عرضها ـ سواء كان ذلك بداخل أحد الأدراج، أو الترتيب في جراج ما. كان كثيراً ما يحصي الأشياء التي تقابله ـ درجاً، عواميد المصابيح، صرخات ـ وكان يفحص الأسطح بأصابعه، في محاولة لإعادة اكتشاف المحتوى اللا متناهي بين ما هو خشن وما هو ناعم. كان يتوقف للنظر إلى الظلال، على الأرض. كان يشعر بكل عملة معدنية، بين أصابعه.

كل هذا كان يمنح حركته اليومية، نوعاً من العظمة، مثل ممثل أو حيوان إفريقي. وفي بطئه الأنيق كان يبدو للآخرين أنه يعرف الوقت الطبيعي للأشياء، وفي دقة إيماءاته كان يبرز على السطح نوع من السلطة على الأشياء نسيتها الأغلبية. لم يكُن حتى جاسبر غوين يدرك هذا، ولكن كان الشيء الأكثر وضوحاً له هو أن ذلك الإيقاع الدقيق كان يعيد إليه بعض الثبات ـ قلب الارتكاز، الذي من الواضح كان قد تلاشى منه.

١١.

استمر الوضع شهرين. ثم، متعباً، عاد ليعيش كالمعتاد، ولكنه، بفعل هذا، عاد على الفور لنقطة التلاشي، ودون أي إمكانية للدفاع

هاجمه شعور بالفراغ لا شفاء منه. من ناحية أخرى، كانت تلك العناية الاستحواذية في الاقتراب من العالم ـ تلك الطريقة التي كان يعقد بها رباط حذائه ـ لم تكُن على الإطلاق شيئاً يختلف كثيراً عن «كتابة» الأشياء بدلاً من أن «يعيشها» في البحث عن الصفات وظروف الزمان والمكان، وهكذا كان لا بد لجاسبر غوين أن يعترف لنفسه بأن تركه الكتب خلق لديه فراغاً لم يعرف كيف يعالجه إلا من خلال وضع طقوس بديلة غير كاملة وتلقائية مثل ترتيب عبارات في ذهنه أو ربط الحذاء ببطء غبي. فقد قضى أعواماً ليقبل أن مهنة الكتابة أصبحت مستحيلة، والآن يجد نفسه مجبراً أن يسجل كيف أنه دون تلك المهنة لم يعد في إمكانه التقدم إلى الأمام بسهولة. وهكذا انتهى به الأمر لأن يُدرك أنه في وضع معروف لدى كثير من البشر، ولكن هذا لا يقلل من كونه مؤلماً: إن الشيء الوحيد الذي يجعلهم يشعرون بالحياة، هو نفسه، المقدر له أن يقضي عليهم ببطء. مثل الأبناء بالنسبة إلى الوالدين، نجاح الفنانين، الجبال شاهقة الارتفاع لمتسلقي الألب. تأليف الكتب، بالنسبة إلى جاسبر غوين.

إدراكه هذا جعله يشعر بأنه ضائع وبلا حيلة مثلما يكون الأطفال الأذكياء. ودُهش لشعوره بغريزة لم تكُن معتادة عليه، تلك الشبيهة بالضرورة الملحة بالتحدث عن ذلك مع أحد. فكر قليلاً ولكن الشخص الوحيد الذي خطر في ذهنه كانت السيدة المسنة صاحبة الوشاح الواقي من المطر، هناك في العيادة. كان سيكون شيئاً طبيعياً أكثر أن يتحدث في ذلك مع توم، كان يدرك هذا، ولوهلة بدا له مستحيلاً أن ينجح في طلب مساعدة، بشكل ما، من واحدة ممن أحببنه من النساء، التي كانت بالتأكيد ستسعد بالاستماع إليه. ولكن في الحقيقة أن الشخص الوحيد الذي أراد أن يتحدث إليه عن ذلك الأمر هو السيدة العجوز من العيادة، هي ومظلتها، ووشاحها الواقي من الأمطار. كان

متأكداً أنها ستفهم. وانتهى الأمر بأن طلب جاسبر غوين مزيداً من الفحوصات ـ لم يكُن الأمر صعباً، بناءً على الأعراض التي يعاني منها ـ وعاد ليتردد على صالة الانتظار التي قابلها فيها في ذلك اليوم.

وفي الساعات التي قضاها هناك، في انتظارها، في الأيام الثلاثة للفحوصات، درس جيداً كيف سيشرح لها ذلك الأمر، إلا أنها استمرت في عدم الحضور، ووصل به الأمر أنه أخذ يتحدث إليها، كما لو كانت هناك، والاستماع إلى إجاباتها. ومن خلال هذا، فهم أفضل كثيراً، ما كان يستهلكه، وفي إحدى المرات تخيل بوضوح السيدة العجوز وهي تُخرج كتيباً صغيراً من حقيبتها، تقويماً تعلق به كثير من بقايا الطعام، ربما بقايا بسكويت ـ وفتحته بحثاً عن عبارة كانت قد دونتها، وعندما عثرت عليها قربت عينيها من الصفحة، بالقرب منها جدّاً، وقرأتها بصوت مرتفع:

ـ *إن الحلول النهائية نتخذها، فقط ودائماً، بسبب حالة نفسية غير مقدر لها أن تستمر.*

ـ من قال هذا؟

ـ مايكل بروست. لم يكُن يخطئ أبداً.

وأغلقت الكشكول الصغير.

كان جاسبر غوين يكره بروست، لأسباب لم يكُن يرغب قط الخوض فيها، ولكن كان قد وضع تلك العبارة جانباً منذ أعوام، واثقاً أنها ستفيده في يوم من الأيام. وعندما قرأتها السيدة العجوز، بدت سديدة بالفعل. وسأل نفسه، ماذا يجب عليّ إذًا أن أفعل.

ـ الناسخ، اللعنة! أجابت السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر.

ـ لست واثقاً أنني أعرف ماذا يعني هذا.

ـ ستفهم. عندما يحين الوقت، ستفهم.

ـ هل تعدينني بذلك.

ـ أعدك.

وفي أثناء خروجه من كشف رسم القلب بالمجهود، في اليوم الأخير، مر جاسبر غوين على مكتب الاستقبال، وسأل إذا كانوا قد رأوا سيدة عجوزاً كانت تأتي إلى المكان كثيراً لتستريح.

نظرت إليه الآنسة الجالسة خلف النافذة الزجاجية لوهلة قبل أن تجيب.

ـ لقد غيبها الموت.

واستخدمت هذا الفعل بالتحديد. وأضافت: منذ بضعة أشهر.

ظل جاسبر غوين يحدق إلى الآنسة، ضائعاً.

سألته: هل كنت تعرفها؟

ـ نعم، كنا نعرف أحدنا الآخر.

واستدار فجأة لينظر إذا كانت المظلة ما زالت على الأرض.

قالت: لم تقل لي شيئاً عن هذا.

لم تسأل الآنسة أي شيء، ربما كانت لديها النية للعودة إلى عملها.

قال جاسبر غوين: ربما لم تكُن تعرف.

عندما خرج شعر برغبة تلقائية في أن يعيد السير في الطريق الذي كان قد سار فيه مع السيدة العجوز، في ذلك اليوم، أسفل الأمطار: لأنه كان كل ما يحتفظ به منها.

ربما أخطأ في عبور طريق ما، ربما لم يكُن منتبهاً كما يكفي في ذلك اليوم، وهكذا وجد نفسه في طريق لا يعرفه، وكان الشيء الوحيد المشابه لذلك اليوم هو سقوط الأمطار، التي بدأت فجأة

وبقوة. حاول البحث عن كافيتيريا يلجأ إليها، ولكنه لم يجد. في النهاية، وفي محاولاته للعودة إلى العيادة، وجد نفسه يعبر أمام معرض للفن. كان نوعاً من الأماكن التي لم يكُن يضع فيها قدميه قط، ولكن في تلك المرة دفعته الأمطار للبحث عن ملجأ، وبالتالي فاجأ نفسه وهو يلقي بنظرة إلى ما خلف الزجاج. كان هناك خشب ملقى على الأرض، وكان يبدو أن المكان فسيح جدّاً، ومُضاء جيداً. عندئذٍ نظر جاسبر غوين إلى اللوحة المعروضة في الفاترينة. كان بورتريهاً، رسماً لصورة شخصية.

١٢.

كانت لوحات كبيرة، كلها متشابهة، كأنها تكرار لرغبة واحدة إلى ما لا نهاية. في كل منها يوجد شخص، عريان، وحوله قليل من الأشياء، في غرفة فارغة، وممر. لم يكونوا أشخاصاً يتسمون بالجمال، كانت أجساداً عادية. كانوا يقفون ببساطة، ولكن كانت القوة التي يفعلون بها ذلك خاصة، كأنهم ترسُّب جيولوجي، أو ثمرة من ثمار التحولات الألفية. فكر جاسبر غوين أنهم كانوا حجارة، ولكن لينة، وحية. كانت لديه الرغبة في لمسهم، كان مقتنعاً بأنهم *فاترو الحرارة*.

كان سيرحل عند تلك المرحلة، كان ذلك يكفي، ولكن في الخارج كان الطوفان. عندئذٍ، ودون أن يعرف أن ذلك سيغير مجرى حياته، أخذ جاسبر غوين يتصفح كتالوج المعرض: كانت هناك ثلاثة كتالوجات مفتوحة، على مائدة من خشب فاتح اللون ـ تلك الكتب الضخمة المعتادة، ذات الأوزان غير المعقولة. استنتج جاسبر غوين أن عناوين اللوحات كانت بالغباء الذي يمكنه أن يتوقعه (رجل يداه على وسطه)، وبجوار كل عنوان كان تاريخ التنفيذ مسجلاً. لاحظ أن

الرسام عمل عليها لسنوات، تقريباً حوالي عشرين سنة، دون أن يغير أي شيء في الطريقة التي يرى بها الأشياء، أو في تقنيته. ببساطة، استمر في العمل، كأنه كان تصرفاً وحيداً، فقط طويل جداً. سأل جاسبر غوين إذا كان الأمر سيان بالنسبة إليه، في الاثني عشر عاماً التي كتب فيها، وبينما يبحث عن إجابة وصل إلى ملحق الكتاب، الذي كانت فيه الصور الفوتوغرافية التي التُقطت في أثناء عمل الرسام، في مرسمه. ودون أن يدرك انحنى قليلاً ليرى أفضل. صدمته صورة فيها الرسام كان يجلس في هدوء على مقعد، ملتفاً نحو النافذة، ينظر إلى الخارج، وعلى بُعد أمتار منه، كانت هناك موديل، كان جاسبر غوين قد رآها للتو في إحدى اللوحات المعروضة في المعرض، كانت تجلس مستلقية على أريكة، في وضع ليس مختلفاً كثيراً عن ذلك الذي ثُبتت فيه على القماش. وهي أيضاً بدت كأنها تنظر في الفراغ.

رأى جاسبر غوين في ذلك زمناً لم يتوقعه، مرور زمن ما. مثل الجميع، كان يتخيل أن هذا النوع من الأشياء، يسير بالطريقة المعتادة، والرسام أمام الحامل، والموديل في مكانه، لا يتحرك، كلاهما مندمجان في خطوة مزدوجة يعرفان قواعدها ـ وكان يمكن حتى تخيل نوع الثرثرة التافهة. ولكن هناك، كان الوضع مختلفاً، حيث إن الرسام والموديل كانا يبدوان كأنهما ينتظران، ويمكن القول إن كلاً منهما ينتظر بمفرده، شيئاً غير اللوحة. كان يبدو كأنهما ينتظران أن يوضعا في قاع كوب ضخم.

١٣.

أدار الصفحة، ولم تكُن الصور مختلفة. كان الموديل يختلف، ولكن ظل الموقف كما هو. كان الرسام في مرة يغسل يديه، مرة

أخرى يسير بقدمين حافيتين ناظراً إلى أسفل. لم يعد يرسم. كانت هناك موديل فارهة الطول ونحيفة جداً، بأذنين كبيرتين لطفلة، تجلس على حافة فراش، وهي تمسك مسند السرير بإحدى يديها. لم يكُن هناك ما يدعو للتفكير بأنهما يتحدثان ـ ولا أنهما قد تحدثا من قبل.

عندئذٍ أخذ جاسبر غوين الكتالوج وبحث حوله عن مكان يمكنه الجلوس فيه. كان يوجد مقعدان لونهما أزرق، تماماً في مقابل مكتب كانت تجلس عليه سيدة تعمل، وحولها أوراق وكتب. لا بد أنها مشرفة المعرض، وسألها جاسبر غوين إذا كان بإمكانه أن يجلس هناك، أم أنه سيتسبب في إزعاجها.

ـ تفضل، قالت السيدة.

كانت ترتدي نظارات طبية غريبة الشكل، وكانت عندما تلمس الأشياء تفعل ذلك بحذر السيدات المعتنيات بأظافرهن.

جلس جاسبر غوين، ولأن المسافة من السيدة كانت من ذلك النوع الذي يكتسب معنى فقط في ضوء رغبة مشتركة في تبادل بعض الكلمات، وضع الكتاب الكبير على ركبتيه، وعاد لينظر إلى تلك الصور، كأنه يجلس بمفرده، في منزله.

كان استوديو الرسام يبدو فارغاً ومتداعياً، لم يكُن هناك أثر لأي نظافة واضحة، وكان يمنح الانطباع بالفوضى اللا واقعية، لأنه لم يكُن هناك أي شيء ليوضع بنظام. بالطريقة نفسها، لم يكُن عُري الموديلات يبدو بتأثير غياب الملابس، ولكنه كان يبدو كأنه الوضع الأصلي، السابق لأي خجل ـ أو في أعقابه بكثير. في إحدى الصور كان يظهر شخص في السبعين تقريباً، بشوارب معتنى بها، وعلى صدره شعر أبيض طويل، كان يجلس على مقعد، وهو منهمك في الشرب من كوب، ربما الشاي، كانت رجلاه مفتوحتين فتحة

خفيفة، وقدماه موضوعتين بزاوية على البلاط البارد. كان يمكن أن يُقال إنه غير مناسب على الإطلاق للعري، إلى حد أن عليه تجنبه في الأوضاع الحميمية المنزلية أو أوضاع الحب، ولكن في الصورة كان في واقع الأمر عارياً تماماً، كان عضوه مستنداً على الجانب، كبيراً ومختتناً، وعلى الرغم من كونه بلا شك غريب الشكل، ولكن أيضاً في الوقت نفسه، كان «لا يمكن تجنبه» إلى حد أن جاسبر غوين كان متيقناً لوهلة أنه يجهل شيئاً ما يعرفه هذا الرجل.

عندئذٍ رفع نظره، وبحث حوله، وعلى الفور عثر على لوحة الرجل ذي الشوارب الكبيرة، معلقة على الحائط المقابل: كان هو تماماً، بلا كوب الشاي، ولكن كان يجلس على المقعد نفسه، عارياً، قدميه موضوعتين بزاوية بعض الشيء على الأرضية الباردة. كان يبدو له ضخماً جدّاً، ولكنه بدا له بوضوح وكأنه شخص «وصل».

ـ هل تعجبك؟، سألته موظفة المعرض.

كان جاسبر غوين يعمل على استيعاب شيء خاص، شيء سيغير فيما بعد مسار أيامه، وهكذا لم يجب على الفور. عاد لينظر إلى الصورة، في الكتالوج، ثم من جديد اللوحة على الحائط ـ كان واضحاً أن شيئاً ما قد حدث، بين الصورة واللوحة، شيئاً كأنه «شرود ما ـ ترحال ما». فكر جاسبر غوين أن الأمر لا بد وقد استغرق وقتاً طويلاً، وبعض العزلة، وبالتأكيد إذابة كثير من المقاومة. لم يفكر في أي خدعة تقنية، وعلى الأقل لم تبدُ له مهارة الرسام ذات أهمية، خطر على ذهنه فقط بأن عملاً صبوراً كان له هدف، وأنه ما استطاع الحصول عليه في النهاية هو «إعادة» ذلك الرجل ذي الشوارب «إلى مسكنه». وبدا له ذلك عملاً رائع الجمال.

١٤.

التفت إلى موظفة المعرض، كان لا يزال مديناً لها بإجابة، وقال:

ـ لا. لا تعجبني اللوحات قط.

ـ آه، قالت موظفة المعرض.

ابتسمت متفهمة، كأن طفلاً قال لها إنه عندما يكبر سيمتهن غسيل النوافذ. ثم سألت بصبر:

ـ وما الذي لا يعجبك في اللوحات؟

مرة أخرى لم يجب جاسبر غوين. كان يفكر في تلك القصة الخاصة بإعادة شخص ما إلى المسكن. لم يكُن يخطر على ذهنه قط أن لوحة شخصية يمكنها أن «تعيد» شخصاً ما «إلى مسكنه»، بل، كان الأمر يبدو له دائماً النقيض لذلك، كان واضحاً أن اللوحات الشخصية تُنفذ لتعرض نوعاً من الهوية المزيفة، وتمررها على أنها الحقيقية. من سيدفع لرسام لينزع عنه أقنعته، وليعلق في منزله ذلك الذي اجتهد هو بنفسه في إخفائه كل أيام حياته؟

من ذلك الذي سيدفع؟ كررها ببطء.

ورفع عينيه نحو موظفة المعرض.

ـ معذرة، هل لديكِ ورقة وشيء أكتب به، من فضلك؟

أعطته موظفة المعرض نوتة ورق وقلماً رصاصاً.

كتب جاسبر غوين شيئاً ما، سطرين.

ثم جلس طويلاً ينظر إليهما. كان يبدو أنه مستغرق في فكرة هشة جداً إلى حد أن موظفة المعرض مكثت في ثبات تام، مثلما يحدث عندما لا يرغب المرء في أن يتسبب في أن يبتعد طائر الدوري من

فوق السياج. كان جاسبر غوين يقول شيئاً بصوت منخفض، ولكن شيء لا يمكن تمييزه. في النهاية أخذ الورقة، وطواها إلى أربعة ووضعها في جيبه. رفع نظره إلى موظفة المعرض.

ـ بكماء، قال.

ـ أفندم؟

ـ لا تعجبني اللوحات لأنها بكماء، لأنها مثل أشخاص يتحدثون من خلال تحريك شفاههم دون أن تُسمع أصواتهم، ولابد من تخيل تلك الأصوات. ولا يعجبني أن أبذل هذا النوع من الجهد.

ثم نهض، ذهب ليقف أمام بورتريه الرجل ذي الشوارب، ولمدة طويلة أخرى، مكث غارقاً في أفكاره، فترة طويلة جدّاً.

عاد إلى المنزل دون أن يعبأ بالأمطار التي كانت تتساقط بقوة، وببرودة. من حين لآخر كان يقول بضع عبارات بصوت مرتفع. كان يتحدث مع السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر.

١٥.

ـ بورتريهات

ـ أجل، لماذا؟

درس توم بروس شيبرد الكلمات جيداً.

ـ جاسبر، أنت لا تجيد الرسم.

ـ بالفعل. الفكرة هي أن أكتبها.

بعد ذلك الصباح في المعرض بأسبوعين، اتصل جاسبر غوين بتوم ليقول له إن لديه أخباراً جديدة. كان يريد أيضاً أن يقول له أن يتوقف عن أن يرسل إليه عقوداً ليوقعها حيث إنه لا يقوم حتى

بفتحها. ولكن السبب الرئيسي للمكالمة كان بسبب قصة ذلك الخبر الجديد.

كان يريد أن يقول له إنه بعد بحث طويل عن عمل جديد يؤدِّيه، وجده الآن. لم يستقبل توم ذلك جيداً.

ـ أنت لديك عمل بالفعل. أنت تؤلف كتباً.

ـ لقد توقفت يا توم، كيف يجب أن أكرر هذا عليك؟

ـ لم يدرك أحد ذلك.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أنك يمكنك أن تبدأ من جديد في الغد.

ـ اعذرني، ولكن إذا أنا قررت فجأة أن أعود للكتابة، كيف سأجرؤ على فعل ذلك، في رأيك، بعد ذلك الذي كتبته على صفحات «الجارديان»؟

ـ القائمة؟ استفزاز عبقري. عملية طليعية. ثم من سيتذكر هذا؟

لم يكُن توم هو مجرد مدير أعماله، ولكن كان الرجل الذي اكتشفه، قبل اثني عشر عاماً. كانا يذهبان للحانة نفسها، عندئذٍ، وفي إحدى المرات مكثا حتى ميعاد الإغلاق يتحدثان عما كان سيكتبه هيمنجواي إذا لم يكُن قد أطلق النار على نفسه من بندقية الصيد في سن اثنين وستين عاماً.

ـ لم يكُن سيكتب أي شيء، أكد توم. ولكن جاسبر غوين كان لديه رأي آخر تماماً، وفي النهاية استنتج توم، على الرغم من أكواب البيرة القاتمة الأربعة، بأن ذلك الرجل يفهم في الأدب وسأله ماذا يعمل. جاسبر غوين قال له، وتوم جعله يكرره، لأنه لم يكُن يصدق.

ـ كنت سأقول إنك أستاذ جامعي، أو صحفي، شيء من هذا القبيل.

ـ لا، لا شيء من هذا النوع.

ـ مم، للأسف.

ـ لماذا؟

ـ ليس لدي أي فكرة، فأنا مخمور. هل تعرف ماذا أعمل؟

ـ لا.

ـ وكيل أعمال أدباء.

أخرج كارت زيارة وأعطاه لجاسبر غوين.

ـ إذا حدث لك في يوم من الأيام، بالصدفة، أن كتبت شيئاً ما، لا ترتكب خطأ نسياني. هل تعرف، يحدث هذا للجميع، إن آجلاً أم عاجلاً.

ـ ماذا؟

ـ كتابة شيء ما.

ثم مرت دقيقة فكر فيها.

ـ وأيضاً نسياني، بالتأكيد.

ثم لم يتحدثا بعد ذلك في هذا الأمر مرة أخرى، وعندما كانا يوجدان في الحانة كانا يجلسان معاً بكل سرور، وغالباً ما كانا يتحدثان عن الكتب، والمؤلفين. ولكن في أحد الأيام فتح توم مظروفاً أصفر، ضخماً جدّاً، الذي وصل إليه عن طريق البريد في الصباح، وبداخله كانت توجد رواية لجاسبر غوين. فتح جزءاً بطريقة عشوائية، وأخذ يقرأ من نقطة عابرة. كانت هناك مدرسة تحترق. وبدأ كل شيء من هنا.

ولكن الآن بدا أن كل شيء يتطلع إلى النهاية، وأدرك توم بروس شيبرد أيضاً الأسباب جيداً. كانت هناك القائمة التي تضم الأشياء الاثنين وخمسين، حسنٌ، ولكن لا يمكن أن يكون هذا هو فقط السبب. كل المؤلفين الحقيقيين يكرهون كل ما هو محيط بمهنتهم، ولكن لا أحد يتوقف لهذا السبب. عادةً يكفي المزيد من الكحول، أو زوجة شابة لديها نزعة للإنفاق. للأسف كان جاسبر غوين يشرب كل يوم كوباً من الويسكي، دائماً في الساعة نفسها، كأن عليه أن يزيت ساعة ما، بالإضافة إلى أنه لم يكُن يؤمن بالزواج. وهكذا كان يبدو أنه لا يمكن عمل أي شيء. الآن أضيفت أيضاً قصة اللوحات الشخصية تلك.

ـ إنه شيء خاص جدّاً يا توم، لا بد أن تقسم لي أنك لن تتحدث فيه مع أحد.

ـ يمكنك الاعتماد عليّ، ثم من سيصدقني.

عندما تزوج توم من لوتي، فتاة مجرية أصغر منه بثلاثة وعشرين عاماً، شهد جاسبر غوين على زواجه، وفي أثناء العشاء في لحظة ما، صعد بقدميه على مائدة وتلا سونيتة ليست لشكسبير، ولكن من تأليفه هو، كانت تقليداً رائعاً. وجاء في آخر بيتين: إذا كان لا بد أن أنساكِ سأتذكر أن أفعل ذلك، ولكن لا تسأليني بعد ذلك أن أنسى ما تذكرته. عندئذٍ أخذه توم بين ذراعيه، ليس فقط لأجل السونيتة، التي فهمها فيما بعد، ولكن لأنه كان يعرف كم كان من الصعب عليه أن يصعد فوق المائدة ويجذب انتباه الناس. لهذا السبب أيضاً أخذه بين ذراعيه. لهذا السبب أيضاً لم يكُن في استطاعته استيعاب قصة البورتريهات تلك جيداً.

طلب منه: حاول أن تشرح لي الفكرة.

ـ لا أعرف، لقد فكرت أن عمل اللوحات الشخصية يعجبني.

ـ حسنًا، لقد فهمت ذلك.

ـ بطبيعة الحال، لن يتعلق الأمر بلوحات، أريد أن أكتب البورتريهات.

ـ أجل.

ـ ولكن كل شيء آخر سيكون كما يتم مع اللوحات... ستوديو، موديل، كل شيء سيكون مشابهاً.

ـ هل ستجعلهم يقفون بطرق معينة.

ـ شيء من هذا القبيل.

ـ ثم؟

ـ ثم إنني أعتقد أن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً. ولكن في النهاية سأبدأ في الكتابة، وذلك الذي سينتج عن ذلك سيصبح بورتريهاً.

ـ بورتريهاً بأي معنى؟ وصف؟

فكر جاسبر غوين في ذلك كثيراً. في الواقع كانت تلك هي المشكلة.

ـ لا، ليس وصفاً، ولكن سيكون له معنى.

ـ الرسامون يفعلون ذلك. هذه ذراع، يرسمها الرسام، وينتهي الأمر. أنت ماذا ستفعل؟ هل ستكتب شيئاً من قبيل: «الذراع ناصعة البياض تستند بخفة» إلخ إلخ؟

ـ لا، بالتأكيد، شيء بعيد تماماً عن تفكيري.

ـ إذًا؟

ـ لا أعرف.

ـ لا تعرف؟

ـ لا. لا بد أن أضع نفسي في الظروف المناسبة لعمل بورتريه، وعندئذٍ سيمكنني اكتشاف ماذا يمكن أن يعني، بالتحديد، أن أكتب بدلاً من أن أرسم. أن أكتب بورتريهاً.

ـ أي، أنك الآن، في هذه اللحظة ليس لديك أدنى فكرة.

ـ شيء ما، بعض الافتراضات.

ـ مثل؟

ـ لا أعرف، ولكنني أتخيل أن الأمر يتعلق بإعادة هؤلاء الناس إلى مساكنهم.

ـ إعادتهم إلى مساكنهم؟

ـ لا أعرف، لا أعتقد أنني أستطيع شرح هذا.

ـ أحتاج إلى شراب. ابقَ على الخط، لا تفكر حتى في أن تضع السماعة.

مكث جاسبر غوين ممسكاً بالسماعة في يده. كان يستمع إلى توم وهو يتمتم بشيء في الخلفية. عندئذٍ وضع السماعة وذهب ببطء تجاه الحمام، وبينما كانت تدور أفكار عديدة في رأسه، جميعها تتعلق بقصة البورتريهات تلك. فكر في أن الشيء الوحيد الذي يمكنه عمله الآن هو أن يحاول، ومن جهة أخرى كان بالتأكيد لا يعلم أين سيمكنه أن يصل عندما بدأ القصة البوليسية الخاصة بالاختفاءات في مدينة جال. لم يكُن لديه في ذهنه سوى الطريقة التي سيستمر بها. تبول. حتى في ذلك الوقت، لو كان توم قد طلب منه أن يشرح قبل أن يبدأ الكتابة حينئذٍ ماذا كان في ذهنه أن يفعله، ببساطة لم يكُن سيعرف ماذا يقول. جذب حبل الخزان لتتدفق المياه. ليس أكثر جنوناً من بداية رواية، الأولى، سوى تأجير استوديو لعمل بورتريهات دون

أن يعرف بالتحديد ماذا يعني هذا. عاد إلى الهاتف وأمسك بالسماعة في يده.

ـ توم؟

ـ جاسبر، هل يمكنني أن أتحدث بإخلاص؟

ـ بالتأكيد.

ـ ككتاب سيكون هذا فشلاً ذريعاً.

ـ لا، لم تفهم، لن يكون كتاباً.

ـ وماذا سيكون إذًا؟

كان جاسبر غوين قد تخيل أن الأشخاص سيأخذون معهم إلى المنزل تلك الصفحات المكتوبة، وأنهم سيحتفظون بها في صندوق مغلق، أو موضوعة على مائدة منخفضة. مثلما يحتفظ المرء بصورة، أو يعلقها في برواز على الحائط. كان هذا جزءاً من العمل سيثير حماسه. لم يعد هناك شيء من الأشياء الاثنين وخمسين، فقط اتفاق بينه وبين أولئك الأشخاص. كان شيء يشبه أن يقوم شخص بصناعة مائدة أو غسيل سيارة. مهنة. كان سيكتب من يكونون، هذا كل ما هناك. كان سيكون بالنسبة إليهم مجرد ناسخ.

قال: ستكون مجرد لوحات شخصية ليس إلا. من سيدفع لأصنع له واحدة، سيأخذها معه إلى المنزل وسينتهي الأمر هكذا.

ـ سيدفع؟

ـ بالتأكيد، الناس يدفعون، أليس كذلك؟ ليرسم لهم أحد صورة شخصية.

ـ جاسبر، إن تلك لوحات، بالإضافة إلى أن الناس توقفوا منذ أعوام عن أن يطلبوا بورتريهات، فيما عدا الملكة وبعض الحمقى الذين تنمو لديهم جدران يرغبون في ملئها.

ـ أجل، ولكن ما أفعله أنا مكتوب، الأمر مختلف.

ـ بل أسوأ!

ـ لا أعرف.

مكثا قليلاً في صمت. وكان يُسمع صوت توم يتجرَّع الويسكي.

ـ جاسبر، ربما من الأفضل أن نتحدث عن هذا مرة أخرى.

ـ أجل، ربما.

ـ لنترك الموضوع بعض الوقت ثم نتحدث عنه مرة أخرى.

ـ موافق.

ـ أحتاج استيعابه.

ـ أجل، أفهم.

ـ بخلاف هذا، كل شيء على ما يرام؟

ـ أجل.

ـ هل تحتاج لأي شيء؟

ـ لا. ربما شيئاً واحداً.

ـ قل لي.

ـ هل تعرف سمسار عقارات؟

ـ شخصاً يبحث عن منازل؟

ـ أجل.

ـ جون سيبتيموس هيل هو الأفضل. هل تتذكره؟

بدا لجاسبر غوين أنه يتذكر شخصاً فارع الطول، ذا طرق لا يشوبها عيب، ويرتدي بطريقة شديدة الأناقة. كان في حفل الزواج.

ـ اذهب إليه، فهو ممتاز. قال توم.

ـ أشكرك.

ـ لماذا؟ هل ستغير منزلك؟

ـ لا، كنت أفكر في أن أستأجر استوديو، مكاناً مناسباً لأحاول فيه تلك البورتريهات.

رفع توم بروس شيبرد عينيه نحو السماء.

١٦.

عندما قدم إليه جون سيبتيموس هيل الملف المطلوب أن يملأه، حيث يُطلب من العملاء توضيح احتياجاتهم، حاول جاسبر غوين أيضاً أن يقرأ الأسئلة ولكن في النهاية رفع عينيه عن الأوراق وسأل إمكانية أن يفعل ذلك شفهياً.

ـ أنا متأكد أنك ستستطيع أن تشرح لي أفضل.

أخذ جون سيبتيموس هيل الملف، نظر إليه نظرة متشككة، ثم ألقى به في سلة المهملات.

ـ لم يحدث ولو مرة واحدة أن قابلت شخصاً رغب في إكماله.

ثم شرح أنها كانت فكرة أحد أبنائه، الذي يعمل معه منذ بضعة أشهر، كان يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً: ينوى أن يطور أسلوب الشركة.

ـ ولكنني أعتقد أن الأسلوب القديم في العمل يسير على أكمل وجه، استكمل جون سيبتيموس هيل، ولكن يمكنك أن تتخيل كيف أمام الأبناء يكون لدينا نوع من الإذعان الأحمق. هل لدى سيادتك أطفال؟

ـ لا، قال جاسبر غوين. لا أؤمن بالزواج ولا أصلح أن أكون أباً.

ـ موقف عاقل جدّاً. هل ترغب في أن تقول لي المساحة التي تلزمك؟

كان جاسبر غوين مستعداً وأعطاه إجابة محددة.

ـ أريد حجرة واحدة كبيرة بحجم نصف ملعب تنس.

لم يقم جون سيبتيموس هيل بأي تعليق.

ـ في أي طابق، سأل.

شرح جاسبر غوين أنه يتخيلها تطل على حديقة داخلية، ولكن أضاف أنه لا بأس أيضاً إذا كانت في الطابق الأخير، الشيء المهم هو أن تكون ساكنة تماماً وتتميز بالهدوء. واختتم، بأنه سيعجبه أيضاً إذا كانت أرضيتها قديمة.

لم يدون جون سيبتيموس هيل أي شيء، ولكن بدا كأنه يراكم في ركن ما من ذهنه كل المعلومات، كأنها ملاءات مكويَّة.

تحدثا عن التدفئة، والحمامات، والبوابة، والمطبخ، والتشطيب، والأقفال ومكان لوقوف السيارات. وحول كل موضوع أظهر جاسبر غوين أن لديه أفكاراً واضحة جدّاً. كان دقيقاً في توضيح أن الغرفة لا بد أن تكون فارغة، بل وفارغة جدّاً. كان مجرد ذكر «مجهزة» يُشعره بالضيق. حاول أن يشرح، ونجح في هذا، أنه لن يتضايق من بعض بقع الرطوبة هنا وهناك، أو ربما بعض الأعطاب الواضحة للعين، بل والأفضل أن تكون في وضع سيئ. أوصى بألا تكون هناك نوافذ خشبية أو قاتمة اللون ليتمكن هو من تنظيم إضاءة الحجرة حسب ما يريد. بعض آثار ورق الحائط القديم على الحوائط لن يضايقه. الأبواب، إذا كانت ضرورية، لا بد أن تكون من

الخشب، وإذا كان من الممكن منتفخة بعض الشيء. وأعلن أن الأسقف لا بد أن تكون مرتفعة.

رتب جون سيبتيموس كل شيء جيداً، وعينيه شبه مغلقتين كأنه انتهى للتو من تناول غداء ثقيل، ثم جلس بعض الوقت في صمت، وكان يبدو عليه الرضا. في النهاية فتح عينيه وأوضح صوته.

ـ هل يمكن أن أسمح لنفسي بسؤال سيكون تعريفه قانوناً بأنه خاص؟

جاسبر غوين لم يقل نعم أو لا. واعتبر جون سيبتيموس هذا تشجيعاً.

ـ سيادتك تمتهن مهنة لا غنى فيها عن درجة عجيبة مرتفعة من الدقة والنزعة إلى الكمال، أليس كذلك؟

دون أن يعرف جيداً السبب، فكر جاسبر غوين على الفور في الغطاسين. ثم أجاب بنعم، في الماضي، امتهن شيئاً من هذا القبيل.

ـ هل يمكن أن أسأل سيادتك ماذا كانت؟ صدقني إنه مجرد فضول.

جاسبر غوين قال إنه لمدة كان مؤلف كتب.

وزن جون سيبتيموس الإجابة، كأنه كان يقيِّم إذا كان يمكنه أن يفهمها دون أن يعرض قناعاته الخاصة للكثير من الفوضى.

١٧.

بعد ذلك بعشرة أيام، اصطحب جون سيبتيموس هيل جاسبر غوين إلى مبنى منخفض، في نهاية حديقة، خلف ماريلبون هاي ستريت. كان المبنى لأعوام مستخدماً لمخزن لنجار. ثم، في نقلة

سريعة، تحول إلى مستودع معرض للفن، ثم مركز إحدى مجلات الرحلات، ثم جراج لهاوي جمع دراجات قديمة. وجد جاسبر غوين المبنى ممتازاً. أعجبته كثيراً بقع الزيت، التي لا يمكن محوها، التي خلّفتها الدراجات على الأرض الخشبية ولوحات الإعلانات عن البحر الكاريبي التي لم يتعب أحد بأن ينزعها من فوق الحوائط. كان هناك حمام صغير فوق السقف، وكان يمكن الوصول إليه بسلم حديدي. لم يكُن هناك أي أثر لمطبخ. كان يمكن غلق النوافذ الكبيرة بمصاريع من الخشب، أعيدت صناعتها للتو ولم تُطلَ بعد. كان يمكن الدخول إلى الحجرة الكبيرة من باب من درفتين يطل على الحديقة. كانت توجد أيضاً مواسير مياه ظاهرة، ولم تكُن موضوعة بطريقة جيدة. علق جون سيبتيموس هيل، بنبرة مهنية، بأن بقع الرطوبة يمكن الوصول لحل لها بسهولة.

ـ على الرغم من أنها المرة الأولى، علق بلا سخرية، تظهر لي الرطوبة كنوع من الديكور المستحب، وليس قبحاً.

حددا ثمن الإيجار، والتزم جاسبر غوين لمدة ستة أشهر، واحتفظ بحق أن يجدد العقد لمدة ستة أشهر أخرى. كان المبلغ كبيراً، وهذا ما ساعده على أن يفهم أنه إذا كانت تلك القصة الخاصة بالبورتريهات لعبة، فهي لم تعد كذلك.

قال جون سيبتيموس هيل في اللحظة التي يودعه فيها: حسنٌ، سأراجع الإجراءات البيروقراطية مع ابني. كانا في الطريق، أمام محطة مترو الأنفاق. لا تعتبر ما سأقوله تعليقاً واجباً، أضاف، ولكن سعدت حقاً بالعمل معك.

كان جاسبر غوين لا يجيد التعامل مع لحظات الوداع حتى في أشكالها البسيطة جدّاً، مثل وداع سمسار العقارات الذي عثر له تواً

على جراج سابق سيحاول فيه أن يكتب بورتريهات. ولكنه كان يشعر بالفعل بنوع من الاستلطاف الحقيقي تجاه ذلك الرجل، وكان سيسعده كثيراً لو تمكن من التعبير عن ذلك. وهكذا، بدلاً من أن يقول شيئاً عاماً لطيفاً، تمتم بعبارة، أدهشته هو أيضاً.

ـ ولكن لم أكُن أعمل دائماً في تأليف الكتب، قال، قبلها كنت أعمل في مهنة أخرى، لمدة تسعة أعوام.

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ فعلاً؟

ـ كنت أعمل كمدوزن. مهنة أبي.

استقبل جون سيبتيموس هيل الخبر بارتياح واضح.

ـ إليك، الآن أعتقد أنني أفهم أفضل. أشكرك.

ثم قال إنه كان هناك شيء دائماً يسأل عنه بخصوص المدوزنين.

ـ كنت دائماً أتساءل إذا كانوا يجيدون عزف البيانو. أقصد، بطريقة حرفية.

أجاب جاسبر غوين: شيء نادر. وعلى كل حال، استأنف، إذا كان السؤال الذي في ذهنك هو كيف، بعد أن يعملوا لعدة ساعات، في النهاية لا يجلسون هناك ليعزفوا مقطوعة البولاكا لشوبان، ليستمتعوا بنتيجة عملهم المخلص ومعرفتهم، فالإجابة هي، حتى وإن كانوا يستطيعون عمل هذا، فلن يعملوه قط.

ـ لا؟

شرح له جاسبر غوين:

ـ إن من يضبط دوزنة البيانو، لا يحب قط أن يفسد ما قام به.

ترك كل منهما الآخر على وعد أن يلتقيا مرة أخرى.

بعد ذلك ببضعة أيام، وجد جاسبر غوين نفسه جالساً على الأرض في زاوية من الجراج السابق الذي أصبح الآن الاستوديو

الخاص به ككاتب بورتريهات. كان يلف المفتاح في يديه، وكان يدرس المسافات، الضوء، التفاصيل. كان هناك صمت عظيم، تقطعه فقط قرقرة متقطعة لصوت المياه في المواسير. جلس هناك لفترة طويلة جدّاً، وهو يحلل التحركات التي يجب أن يتخذها. شيء ما لا بد من وضعه ـ فراش، ربما، وبعض المقاعد. فكر في كيفية الإضاءة، وأين سيكون هو. حاول أن يتخيل نفسه هناك، في صحبة صامتة لشخص مجهول، متروكين كل منهما في زمن لا بد خلاله من تعلم كل شيء. شعر بالفعل بخجل جامح يعتصره.

قال في لحظة ما: لن أتمكن أبداً من فعل ذلك.

ـ ولكن تخيل بعض الشيء، قالت السيدة ذات الوشاح الواقي للمطر. اشرب بعض الويسكي قبلها، إذا كنت تشعر بالفعل بذلك.

ـ يمكن ألا يكفي.

ـ إذًا ويسكي جرعة مضاعفة.

ـ تجعلين الأمر سهلاً.

ـ ماذا بك، هل أنت خائف؟

ـ أجل.

ـ حسنٌ. إذا لم يخف المرء لن ينجز أي شيء جيد. ماذا عن بقع الرطوبة؟

ـ يبدو أنه لا يمكن سوى الانتظار. إن مواسير التدفئة مقززة للغاية.

ـ إنك تطمئنني.

في اليوم التالي، قرر جاسبر غوين أن يهتم بالموسيقى، فقد أثقل عليه كل ذلك الصمت، وكان قد وصل لخلاصة أنه لا بد من أن

يلف هذه الحجرة بنوع ما من الأصوات. كانت قرقرة المياه أيضاً جيدة، ولكن كان متأكداً من إمكانية الوصول إلى شيء أفضل.

١٨.

كان يعرف العديد من مؤلفي الموسيقى، في الأعوام التي كان يدوزن فيها آلات البيانو، ولكن كان ديفيد باربر هو من خطر في باله. كان الشيء له منطقه: كان جاسبر غوين يتذكر بوضوح مقطوعة للكلارينيت، المروحة وأنابيب المياه. لم تكُن سيئة. كانت الأنابيب تقرقر بشدة.

لم ير أحدهما الآخر منذ أعوام طويلة، ولكن عندما حدث ووصل جاسبر غوين إلى شهرة معينة، بحث عنه ديفيد باربر ليعرض عليه أن يكتب نصاً لمقطوعة غنائية. لم يفعل بها شيئاً (كانت مقطوعة غنائية لصوت مسجل، مَسِيل للصودا ووتريات) ولكن استمر الاثنان على اتصال. كان ديفيد شخصاً ودوداً، يهوى الصيد، ويعيش محاطاً بكلابه التي يطلق عليها فقط أسماء عازفي البيانو، الشيء الذي كان يسمح لجاسبر غوين، أن يؤكد، دون أن يكذب أن رادو لوبو قد عقره في إحدى المرات. وكمؤلف كان يتسلى كثيراً بأن يتردد على الجناح الأكثر احتفاءً بالطليعية في نيويورك: لم يكُن يربح كثيراً من النقود، ولكن كان النجاح مع النساء هناك شيئاً مؤكداً. ثم اختفى لفترة طويلة، متبعاً بعض أفكاره الغريبة حول العلاقات بين نبرات الصوت، وكان يعّلم ما يبدو أنه قد فهمه لبعض الدوائر شبه الجامعية. كانت المرة الأخيرة التي سمع جاسبر غوين فيها عنه عندما قرأ، في الصحف، عن حفلة موسيقية قام بها، بطريقة غير تقليدية في أولد ترافورد، الاستاد المشهور في مانشستر. كان عنوان

المقطوعة، التي كان يبلغ طولها تسعين دقيقة، هو «الدور قبل الأخير».

عثر على عنوانه بسهولة، وكان يقف في صباح أحد الأيام أمام باب منزله في فولهام. فتح ديفيد باربر الباب وعندما رآه احتضنه بلا تردد، كأنه كان في انتظاره. ثم ذهبا سوياً إلى المتنزه، ليأخذا مارثا آرجيريك لتتبرز. كانت من فصيلة الجريفون.

١٩.

مع ديفيد لم يكُن يحتاج أن يلف ويدور كثيراً، وبالتالي قال جاسبر غوين ببساطة إنه يحتاج إلى شيء ليبعث بعض الصوت في الاستوديو الجديد الخاص به. قال له إنه لم يكُن يستطيع أن يعمل في الصمت.

سأله ديفيد باربر: ألم تفكر قط في أسطوانات جيدة؟

ـ إن تلك موسيقى، أنا أرغب في أصوات.

ـ أصوات أم ضوضاء؟

ـ في وقت ما، لم تكُن تفكر أن هناك فارقاً.

استمرا في التحدث وهما يسيران في المتنزه، بينما كانت مارثا آرجيريك تطارد السناجب. قال جاسبر غوين إن ما كان يتخيله هو ملفّ موسيقى طويل جدّاً، لا يكاد يُلحظ، فقط يلف الصمت، بأن يتغلب عليه.

سأله ديفيد باربر: طويل جدّاً إلى أي مدى؟

ـ لا أعرف. ربما خمسين ساعة؟

توقف ديفيد باربر وضحك.

ـ حسنٌ! ليس الأمر مجرد مزحة. سيكلفك مبلغاً كبيراً يا صديقي.

ثم قال إنه يرغب في أن يرى المكان. وأن يفكر في الموضوع بعض الشيء وهو جالس هناك. وهكذا قررا أن يذهبا معاً إلى الاستوديو خلف ماريلبون هاي ستريت، في صباح اليوم التالي. قضيا الباقي من الوقت يتذكران الأيام الخوالي، وفي لحظة ما، قال ديفيد باربر إنه لفترة، منذ عدة أعوام، كان مقتنعاً أن جاسبر كان يأخذ صديقته، في تلك الحقبة، إلى الفراش. كانت سويدية تعمل كمصورة. فقال له جاسبر غوين: كانت هي التي تأخذني معها إلى الفراش، لم أكُن أنا أفهم شيئاً. وضحكا على ذلك.

في اليوم التالي، وصل ديفيد وهو يركب سيارة عائلية كلها خبطات، كانت رائحتها تشبه رائحة كلب مبتل من عن بُعد. أوقف السيارة أمام صنبور الحريق لأنها كانت طريقته الخاصة للاعتراض على إدارة الحكومة لميزانية الثقافة. دخلا معاً إلى الاستوديو وأغلقا الباب خلفهما. كان هناك صمت شديد بالفعل، فيما عدا أصوات قرقرة الأنابيب المعتادة.

ـ جميل، قال ديفيد باربر.

ـ أجل.

ـ لا بد أن تحترس من بقع الرطوبة تلك.

ـ كل شيء تحت السيطرة.

أخذ ديفيد باربر يتجول قليلاً في الحجرة، وأخذ مقاييس ذلك الصمت الخاص. أخذ ينصت باهتمام إلى الأنابيب، وقيّم صرير الأرض الخشبية.

ثم في لحظة ما قال: ربما أحتاج أيضاً إلى معرفة أي نوع من الكتب تؤلف.

شعر جاسبر غوين بلحظة من الضيق. لم يكُن قد اعتاد بعد على أنه سيقضي دهراً يحاول إقناع العالم بأنه لم يعد يكتب. كانت ظاهرة غير معقولة. في إحدى المرات قابله أحد المحررين في الطريق هنأه بحرارة على مقالته في «الجارديان». ثم سأله على الفور: وماذا تؤلف حالياً؟ كانت أشياء لم يكُن جاسبر غوين قادراً على استيعابها.

قال: صدقني إن ما أكتبه ليس له أي أهمية.

وشرح أن ما سيعجبه هو خلفية صوتية قادرة على أن تتغير مثل الضوء في أثناء النهار، وبالتالي بطريقة لا يمكن ملاحظتها ومستمرة. وبصفة خاصة بطريقة أنيقة. كان هذا مهماً جدّاً. أضاف أيضاً أنه كان سيفضل شيئاً لا توجد به أي شبهة إيقاع، ولكن فقط تطور يعمل على إيقاف الزمن، وببساطة يملأ الفراغ بتتالٍ خالٍ من الوصلات. قال أيضاً إنه سيرغب في شيء ساكن مثل وجه يكبر في السن.

ـ أين المرحاض؟ سأل ديفيد باربر.

عندما عاد قال له إنه موافق.

ـ عشرة آلاف جنيه إسترليني بالإضافة إلى جهاز التوزيع. نستطيع أن نقول عشرين ألف جنيه إسترليني.

كان يجب على جاسبر غوين أن يفكر في أنه يحرق كل مدخراته في مقامرة على مهنة لم يكُن يعرف حتى إذا كان لها وجود. كان يرغب بطريقة ما أن يقف ويستند إلى الحائط لأنه كان يُدرك أن هذه الطريقة ربما تكون فرصته الوحيدة ليعثر في نفسه، على ذلك الذي يبحث عنه. وهكذا وافق.

شهر بعد ذلك حضر ديفيد باربر ليضع نظام التوزيع ثم ترك لجاسبر غوين هارد ديسك.

ـ استمتع به. اثنان وستون ساعة، استطال مني بعض الشيء. كنت أحاول العثور على نهاية.

في تلك الليلة تمدد جاسبر غوين على الأرض، في استوديو الناسخ الخاص به، وبدأ تشغيل أسطوانة الصوت. بدأت بذلك الذي بدا كضوضاء الأوراق، ثم استمر وهو يتقدم بلطف، وكان يعثر، كأن ذلك بمحض الصدفة، على أصوات من كل نوع.

دمعت عينا جاسبر غوين.

٢٠.

في الشهر الذي كان ينتظر خلاله موسيقى ديفيد باربر، أو أيما كانت، اندمج جاسبر غوين في تنظيم التفاصيل الأخرى. بدأ بالأثاث. في مخزن أثاث مستعمل في ريجينت ستريت، عثر على ثلاثة مقاعد وفراش من الحديد، كان يبعث على الحزن، ولكن كانت له أناقته. أضاف إليهم أريكتين مستهلكتين من الجلد وكان لهما لون كرات الكريكيت. استأجر سجادتين كبيرتين وباهظتَي الثمن، وابتاع بثمن غير واقعي شماعتَي ملابس مصدرهما بار فرنسي. أغراه لوهلة حصان آتٍ من ملاهٍ يعود للقرن الثامن عشر، وهناك أدرك أن الموضوع أخذ يخرج من بين يديه.

شيء لم يستطع على الفور أن يصل إليه كان الكيفية التي سيكتب بها، إذا كان سيفعل ذلك وهو واقف على قدميه أم جالساً على مكتب، بالحاسوب، بيده، على ورق كبير، أم على أوراق روزنامة صغيرة. كان يحتاج أن يفهم أيضاً، إذا كان سيكتب بالفعل، أو أنه سيكتفي بأن يلاحظ ويفكر ويجمع كل شيء في وقت لاحق، ربما في المنزل، كان ذلك ما طرأ في ذهنه. بالنسبة إلى الرسامين الأمر بسيط، كان لديهم النسيج الذي يقفون أمامه، لم يكُن هذا غريباً.

ولكن إذا كان هناك من يريد أن يكتب؟ هل يمكنه أن يمكث هناك على المائدة أمام الحاسوب. في النهاية فهم أن أي شيء سيكون بلا معنى دون أن يبدأ العمل بالفعل وأن يكتشف في أثناء العمل، في اللحظة المحددة، ما هو الشيء الذي يجب عمله وما يجب تجنبه. إذًا لا مكتب، ولا حاسوب محمول، ولا حتى القلم الرصاص في اليوم الأول، هذا ما قرره. سمح لنفسه فقط بخزانة للأحذية، متواضعة، ليضعها في إحدى الزوايا: تخيل أنه سيحب، في كل مرة، أن يرتدي الحذاء الذي سيبدو له مناسباً في ذلك اليوم.

جعله الاعتناء بكل تلك الأشياء يشعر على الفور بأنه في حال أفضل، ولم يعد، لفترة، يهتم بالأزمة التي كانت قد اجتاحته لشهور. عندما كان يبدأ في الوصول إلى نوع من التلاشي، تعلم كيف يتعرف عليه، كان يتجنب الشعور بالفزع، ويبدأ في التركيز على مشغولياته العديدة جدّاً، متوجهاً إليها بعناية فائقة، أكثر جنوناً. أصبح يجد في عنايته الشديدة بالتفاصيل راحة فورية. يدفعه هذا، أحياناً، للوصول إلى قمم من الكمال تكاد تكون أدبية. يحدث على سبيل المثال، أن يجد نفسه أمام الحرفي الذي يصنع المصابيح. لم تكُن مجرد مصابيح عادية ولكنها كانت مصابيح صغيرة. كان يصنعها بيده. كان مسناً لديه معمل كئيب في نواحي كامدن تاون. بحث عنه جاسبر غوين طويلاً، دون أن يعرف حتى بوجوده، وفي النهاية عثر عليه. ذلك الذي كان في ذهنه أن يطلبه، هو ضوء خاص جدّاً ـ *طفولي*، شرح له ـ ولكن الأهم أن تكون إضاءة تستمر فترة معينة محددة. كان يرغب في مصابيح صغيرة تموت بعد اثنين وثلاثين يوماً من العمل.

سأله المسن، كأنه يعرف عمق المسألة: فجأة، أم تتعذب بعض الشيء؟

٢١.

كانت تلك المصابيح موضوعاً يمكن الشك في أهميته، إلا أنها كانت بالنسبة إلى جاسبر غوين مسألة جوهرية. فالأمر يتعلق بالزمن. على الرغم من أنه لم تكُن لديه أي فكرة عما يمكن أن يكونه «كتابة بورتريه»، لكنه كوَّن فكرة ما عن الفترة الزمنية الممكنة، مثل شخص يسير في الليل يمكنه أن يميز المسافة فقط وليس الماهية، فقد استبعد على الفور أي شيء سريع، ولكن أيضاً وجد صعوبة في التفكير في عمل متروك لنهاية غير محددة أو بعيدة المدى، وهكذا بدأ قياس ثقل الساعات وتناسق الأيام، وهو مستلقٍ على الأرض في الاستوديو وحيداً تماماً.

كان في ذهنه نوع من الترحال، يشبه ذلك الذي كان قد رآه في اللوحات، في ذلك اليوم، وكان قد انتوى أن يستنتج سرعة الخطوات التي استغرقها، وطول المسيرة التي أدت إلى وجهة الوصول. كان لا بد من تمييز السرعة التي بها سيتم التغلب على مشاعر الخجل، والبطء الذي به ستطفو بعض الحقائق على السطح. أدرك أنه يمكن إنجاز هذا الأمر فقط من خلال دقة معينة، مثلما يحدث في محاولة المرء الحصول على بعض لحظات السعادة في الحياة.

في نهاية الأمر اقتنع أن اثنين وثلاثين يوماً يمكنها أن تمثل فترة تقريبية مقنعة في البداية. استقر على أنه سيجرب جلسة عمل في اليوم، مدتها أربع ساعات، لمدة اثنين وثلاثين يوماً. وهنا كانت تحين لحظة المصابيح.

في الواقع لم يكُن يستطيع تخيل شيء ينتهي فجأة، بنهاية الجلسة الأخيرة، بطريقة بيروقراطية وغير حميمية. كان من الواضح أن نهاية هذا العمل لا بد أن تكون لها نهايتها الأنيقة، بل والشعرية، والرقيقة

إذا أمكن. عندئذٍ خطر على ذهنه ذلك الحل الذي درسه بالنسبة إلى الإضاءة ـ ثمانية عشر مصباحاً معلقة في السقف، على مسافات متساوية، في شكل هندسي جميل ـ وانتهى الأمر بأن تخيل أنه في خلال تلك الأيام الاثنين وثلاثين ستبدأ تلك المصابيح في أن تخبو واحداً تلو آخر، بالترتيب، ولكن جميعها في فترة لا تقلّ عن يومين ولا تزيد على أسبوع. رأى الاستوديو ينزلق في ظلام على دفعات، تبعاً لخطة عشوائية، ووصل إلى تخيل كيف سينتقل هو والموديل، ليستخدما الأضواء الأخيرة، أو ربما الاحتماء في بداية الظلام. ورأى نفسه بوضوح وهو يضع اللمسات الأخيرة للوحة، على الضوء الباهت للمصباح الأخير. ثم في النهاية قبول الظلام، قبول موت الشعلة الأخيرة.

سيكون شيئاً رائعاً، فكر.

ولهذا السبب وجد نفسه أمام المسن في كامدن تاون.

ـ لا، لا بد لها أن تموت فحسب، دون أن تتألم، ودون أي ضوضاء، إن أمكن.

قام المسن بواحدة من تلك الإشارات غير المفهومة وكأنه يثأر من العالم. ثم شرح أن المصابيح ليست مخلوقات سهلة، فهي تتأثر بكثير من المتغيرات، وكثيراً ما يكون لديها نوع من أنواع الجنون غير المتوقع.

وأضاف: عادةً يقول العميل عند هذه العبارة: مثل النساء. ولكن لتوفر عليّ هذا أرجوك.

قال جاسبر غوين: مثل الأطفال.

وافق المسن بإيماءة برأسه. ومثل كل الحرفيين كان يتحدث وهو يعمل، وفي حالته كان هذا يعني أنه يمسك بين أصابعه مصابيح

صغيرة، وكانت تقريباً تشبه البيض، وكان يغمسها في سائل قاتم اللون، له الشكل الغريب للمادة المقطرة. كان هدف العملية شيئاً لا يمكن تفسيره. كان يجففها بعد ذلك بخرقة عجوز مثله.

استغرقا وقتاً طويلاً في النقاش حول طبيعة المصابيح، وانتهى الأمر بجاسبر غوين لأن يكتشف عالماً لم يكُن يتخيل قط وجوده. أعجبه جدًا اكتشاف أن أشكال المصابيح لا نهاية لها، ولكن الأشكال الأساسية هي ستة عشر، ولكل منها اسم. ولنوع من الأناقة التقليدية، فهي تحمل جميعها أسماء ملكات أو أميرات. اختار جاسبر غوين مصابيح كاترينا داي ميديتشي، لأنها كانت تشبه الدموع التي تسيل على الثريا.

سأله المسن، عندما قرر أن ذلك اليوم يستحق عمله: اثنان وثلاثون يوماً.

ـ هذه هي الفكرة.

ـ لا بد أن أعرف كم مرة ستشعلها وتطفئها.

ـ مرة واحدة. أجاب جاسبر غوين بلا تردد.

ـ كيف تعرف ذلك؟

ـ أعرفه.

نهض المسن، ورفع عينيه تجاه جاسبر غوين. دقق النظر في حدقتي عينيه، إذا أمكن القول. كان يبحث عن شيء، ولكنه لم يعثر عليه. شرخ ما. عندئذٍ خفض نظرته لينظر إلى عمله وعادت يداه للعمل.

وقال: لا بد من العناية الكبيرة بطريقة نقلها وتركيبها. هل تعرف كيف تمسك بمصباح في يدك؟

أجاب جاسبر غوين: لم أسأل نفسي قط هذا السؤال.

أعطاه المسن مصباحاً. كان مصباح إليزافيتا رومانوف. أمسك به جاسبر غوين بحرص في كف يده. عبس وجه المسن.

ـ استخدم أصابعك، ستقتله هكذا.

أطاع جاسبر غوين.

قال المسن وهو يهز رأسه: ستكون مصابيح مسمار إذًا، إذا أعطيتك تلك اللولبية ربما أنهيت عمرها حتى قبل أن تضيئها. ثم أخذ منه إليزافيتا رومانوف.

اتفقا أنه بعد تسعة أيام، سيسلم المسن ثمانية عشر كاترينا داي ميديتشي مُقدراً لها أن تُطفأ في خلال فترة زمنية تتراوح بين السبعمئة وسبعين والثمانمئة وثلاثين ساعة. ستُطفأ بلا نزاع في ومضات مُهدرة، وفي صمت. ستفعل ذلك مصباحاً بعد الآخر، تبعاً لنظام لا يمكن لأحد توقعه.

ـ نسينا التحدث عن نوع الإضاءة، قال جاسبر غوين وهو على وشك الخروج.

ـ كيف تريدها؟

ـ طفولية.

ـ اتفقنا.

تصافحا وشد كل منهما على يد الآخر، وأدرك جاسبر غوين أنه يفعل ذلك بحرص، كما كان يفعل قبل ذلك بأعوام كثيرة وهو يصافح عازفي البيانو.

٢٢.

جميل، قالت السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر. وضعت مظلتها لتجف على أنابيب التدفئة المركزية، وأخذت تتجول في

المكان وتنظر إلى التفاصيل عن قرب. نظرت إلى خزانة الأحذية، وللسجاجيد ذات الألوان الدافئة، وبقع الرطوبة على الجدران، وبقع الزيت على الأرضية. ذهبت لتتأكد أن الفراش لم يكُن ضعيفاً جدّاً، وجربت المقاعد. وقالت: جميل.

كان جاسبر غوين، واقفاً في إحدى زوايا الاستوديو الجديد الخاص به، وهو ما زال يرتدي معطفه، ينظر إلى ذلك الذي قد فعله في شهر ونصف، من لا شيء، وهو يتبع فكرة مجنونة. لا يجد أخطاء، وفكر في أن كل شيء قد تم عمله باهتمام ودقة. على النهج نفسه الذي كان الناسخ سيضع به الورق والأقلام على المائدة، ويرتدي نصف الأكمام من النسيج، يختار الحبر، واثقاً بأنه سيتعرف على درجة الأزرق الملائمة. فكر في أنه لم يخطئ، كانت مهنة رائعة. لوهلة خطرت له فكرة لافتة من الحديد الصدئ، على الباب: *جاسبر غوين. ناسخ.*

ـ من المدهش أن يكون كل هذا بلا فائدة دون وجود أي موديل، قالت السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر. أم أنني أنا فقط من يرى هذا؟ أضافت وهي تنظر حولها وهي تبدو كمن يبحث عن قسم الصلصة في السوبر ماركت.

ـ لا، لا يوجد موديل، إلى الآن. قال جاسبر غوين.

ـ وأتخيل أنهم لا يقفون أيضاً في صف خلف الباب.

ـ ليس بعد.

ـ هل لديك فكرة كيف ستحل هذا، أو أنك تتوقع أن تؤجل هذا الشيء حتى ينتهي عقد الإيجار؟

من حين لآخر كانت نبرات معلمة المدرسة تعود إلى السيدة العجوز. تلك الطريقة المتذمرة لمن يقلق على الأشياء بشدة.

ـ لا، لدي خطة. أجاب جاسبر غوين.

ـ لنستمع إليها.

كان جاسبر غوين قد فكر في الأمر ملياً. كان من الواضح أنه لا بد أن يعيّن أحدهم، المرة الأولى ليجرب الأمر. ولكن لا بد من الاختيار بحرص، لأن موديلاً صعباً جدّاً سيتسبب في إحباطه بلا فائدة، وموديلاً سهلاً جدّاً لن يدفعه للعثور على ما يبحث عنه. لم يكُن أيضاً سهلاً تخمين من سيكون على درجة من التغرب المطلوبة لتلك التجربة الأولى. إذا قلنا صديقاً، ربما سهل عليه الواجب بدرجة كبيرة، ولكنه كان سيزيف التجربة، لأنه بالفعل سيكون قد سبقت له معرفة أشياء تخصه، ولن يمكنه النظر إليه كأنه منظر طبيعي لم يره من قبل. من الناحية الأخرى فإن اختيار شخص غريب تماماً، مثلما يقترح عليه المنطق، كان يتضمن سلسلة من المواقف المحرجة التي يرغب جاسبر غوين أن يتجنبها، على الأقل في تلك المرة. بالإضافة إلى صعوبة شرح الأشياء، والاتفاق على نوع العمل المطلوب عمله، ستكون هناك أيضاً مسألة العري، الشائكة. عفوياً بدا لجاسبر غوين أن عري الموديل شرط لا يمكن الاستغناء عنه. كان يتخيل الأمر كنوع من الجلد الضروري، والذي يمكنه أن ينقل كل شيء إلى أبعد الحدود. وكان يشعر أنه دون ذلك الخلع المزعج، لن يكون أمامه أي حقل مفتوح ولا أي توقعات لا نهائية. إذًا لا بد من الاستسلام. لا بد أن يكون الموديل عارياً. ولكن كان جاسبر غوين شخصية متحفظة ويقدّر الخجل. لم تكُن لديه ألفة مع الأجساد وفي حياته عمل فقط مع الأصوات والأفكار. إن ميكانيكية آلة البيانو كانت أكثر شيء حسي استطاع أن يسوده. عندما يفكر في موديل عارٍ أمامه، كان كل ما يشعر به هو فقط خجل عميق، واضطراب حتمي. لهذا كان

اختيار الموديل الأول حساساً جدّاً، ويستبعد فرضية اختيار شخص غريب تماماً.

في النهاية، ومن أجل تبسيط الأمور بعض الشيء، كان جاسبر غوين قد قرر أن يستبعد فرضية موديل ذكر. لم يكُن يستطيع هذا. لم تكُن مسألة خوف من المثليين، ولكن مجرد عدم اعتياد. لم يكُن في حاجة إلى تعقيد حياته كثيرًا، في تلك التجربة الأولى: كان تعلم النظر إلى جسد ذكر هو شيء يفضل تأجيله في تلك اللحظة. اختيار امرأة سيكون بلا شك أفضل، ولن يكون قد بدأ من الصفر. ولكن كان اختيار امرأة ستكون له بالتأكيد آثاره، التي يدركها جاسبر غوين بكل تأكيد. وهنا سيضاف تنوع الرغبة. كان سيفضل أن يبدأ بجسد جميل ليكتشفه، ينظر إليه ويتلصص عليه. ولكن من الواضح أن كتابة البورتريه كان عملاً يبتعد عن الرغبة الصرفة والبسيطة، أو، بالإضافة إلى ذلك كان لا بد أن ينطلق من تلك الرغبة، ليتركها، بشكل ما، تنحدر. لا بد لعمل البورتريه لشيء من الحميمية المنفصلة. إذًا فالجمال الزائد عن الحد سيكون غير مناسب. وفي الوقت نفسه، الابتعاد المبالغ فيه عن الجمال سيكون عذاباً لا فائدة منه. ما يبحث عنه جاسبر غوين هو امرأة سيكون من الجميل النظر إليها، ولكن ليس إلى حد اشتهائها.

سألته السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر، بينما كانت تنزع الغلاف عن حلوى بطعم الليمون: فلننجز، هل وجدتها؟

ـ أجل، أعتقد أنني وجدتها.

ـ إذًا؟

ـ لا بد أن أجد الطريقة التي سأسألها بها. ليس الأمر بهذه البساطة.

ـ إنه عمل يا مستر غوين، وليس دعوة للذهاب إلى الفراش.

ـ أعلم هذا، ولكنه عمل عجيب.

ـ إذا شرحت لها ستفهم. وإذا لم تفهم، فمقابلٌ سخيّ سيساعدها على الاستيعاب. لأنك تنوي منح مكافأة سخية، أليس كذلك؟

ـ لا أعرف بالتحديد.

ـ ما هذا، هل أنت بخيل؟

ـ لا، ليس الأمر كذلك، فقط لا أرغب في إهانة أحد. في نهاية الأمر فهي نقود في مقابل جسد عارٍ.

ـ بالتأكيد، إذا قدمت الأمر هكذا..

ـ ولكنه هكذا.

ـ ليس حقيقياً. فقط شخص متزمت ومعقد مثل سيادتك يمكنه أن يتخيل وصف الأمر بتلك المصطلحات.

ـ هل تعرفين أسلوباً أفضل؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ بالتأكيد.

ـ لنستمع إليه.

ـ «أيتها الآنسة، هل تسمحين، في مقابل خمسة آلاف جنيه إسترليني، أن أنظر إليكِ لمدة ثلاثين يوماً فقط لأنسخ سرك؟» ليست عبارة صعبة في القول. تدرب عليها قليلاً أمام المرآة، ربما ساعدك هذا.

ـ خمسة آلاف مبلغ كبير بعض الشيء.

ـ ماذا تفعل، ستبدأ من جديد؟

نظر جاسبر غوين إليها مبتسماً، وأحبها كثيراً. لوهلة فكر كم كان سيكون الأمر بسيطاً جدّاً، بل ورائعاً أن يبدأ بتلك المرأة.

ـ انسَ هذا الأمر فأنا عجوز جدّاً. لا يجب أن تبدأ بشخص مسن، سيكون الأمر جد صعباً.

ـ لكن سيادتك لستِ مسنة. أنتِ ميتة.

رفعت السيدة كتفيها.

ـ الموت ليس إلا طريقة مُتقنة جدّاً للتقدم في السن.

عندما عاد إلى المنزل، تدرب جاسبر غوين قليلاً أمام المرآة. ثم اتصل بتوم بروس شيبرد. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

٢٣.

ـ اللعنة يا جاسبر، الساعة الثانية! وأنا في الفراش!

ـ هل كنت نائم؟

ـ النوم ليس هو الشيء الوحيد الذي يفعله المرء في الفراش.

ـ آه.

ـ لوتي تحييك.

وفي الخلفية سمع صوت لوتي، التي بلا ضجر كانت تقول أهلاً جاسبر. كانت شخصية لطيفة.

ـ أنا آسف يا توم.

ـ فلتنسَ ذلك. ماذا هنالك، هل ضللت الطريق مرة أخرى؟ هل يجب أن أرسل ريبيكا للبحث عنك؟

ـ لا، لا، لم أعد أضل الطريق. ولكن في الواقع... في الحقيقة كنت أود التحدث معك عنها.

ـ عن ريبيكا؟

كان ما فكر فيه جاسبر غوين هو أن تلك الفتاة كانت رائعة. كان يفكر كيف أن الجمال المستعصي لوجهها يبعث على رغبة ينكرها الجسد، بهدوئه وبطئه، فهي اختيار رائع. فقد كانت السم والترياق، بطريقة عذبة وغامضة. لم يكُن جاسبر غوين قد قابلها ولا مرة واحدة، دون أن يشعر بالرغبة الطفولية في أن يلمسها بالكاد: ولكن كمن لديه الرغبة لأن يضع إصبعه على حشرة مضيئة، أو زجاج يغطيه البخار. بالإضافة إلى أنه يعرفها ولا يعرفها في الوقت نفسه، وكان هذا يبدو له البعد المناسب، في تلك المنطقة الوسط حيث المزيد من الاقتراب سيكون انتصاراً بطيئاً ولكن ليس مستحيلاً. كان يعرف أنه يمكنه النظر إليها لمدة طويلة، بلا إيحاءات، ولا رغبة، ولكن أيضاً دون أن يشعر أبداً بالملل.

ـ نعم، ريبيكا، المتدربة؟

انفجر توم في الضحك.

ـ إيه يا جاسبر، هل أنت ضعيف تجاه السمينات؟

ثم التفت للوتي: اسمعي هذا، جاسبر مُعجب بريبيكا.

وفي الخلفية كان يُسمع الصوت الناعس للوتي وهي تسأل: مَن ريبيكا؟

ـ جاسبر، أخي العزيز، أنت لا تتوقف أبداً عن إدهاشي.

ـ هل يمكنك أن تكف عن نكات الجيش تلك للحظة وتستمع إليّ؟

ـ حسنٌ.

ـ الأمر جاد.

ـ هل وقعت في الحب؟

ـ الأمر جاد بمعنى أنه أمر يتعلق بالعمل.

ارتدى توم نظاراته. في مثل هذه الظروف كانت طريقته في فتح مكتبه.

ـ هل اقتنعت بعمل مشاهد الكتب التي لن تكتبها أبداً؟ لقد قلت لك إن تلك فتاة ماهرة.

ـ لا يا توم، ليس لتلك القصة. إنني سأحتاج إليها في عملي. ولكن ليس هذا العمل.

ـ خذها إذًا. طالما ستعود إلى عملك، فأنا موافق.

ـ ليس الأمر بهذه البساطة.

ـ لماذا؟

ـ أريد أن تكون هي موضوع بورتريهي الأول. أنت تعرف موضوع اللوحات؟

كان توم يتذكر الأمر جيداً.

ـ أنا لست سعيداً جدّاً بتلك الفكرة يا جاسبر، أنت تعرف ذلك.

ـ أعرف، ولكن الآن المشكلة مختلفة. سأحتاج لأن تأتي ريبيكا إلى الاستوديو لتتخذ أوضاعاً لمدة ثلاثين يوماً. سأدفع لها. ولكن ستقول لي إنها لا تريد أن تفقد عملها معك.

ـ تتخذ أوضاعاً؟

ـ أريد أن أجرب.

ـ أنت مجنون.

ـ ربما. ولكنني الآن أحتاج لتلك الخدمة. اتركها لتعمل لي لمدة هذا الشهر، ثم استردها.

استمرا بعض الشيء في الحديث عن هذا الموضوع، وكانت مكالمة جميلة، لأن الأمر انتهى بأن أخذا يتناقشان في مهنة الكتابة،

والأشياء التي يحبانها هما الاثنان. جاسبر غوين شرح له أن موضوع البورتريهات هذا يعجبه لأنه سيجبره على أن يلوي موهبته في وضع غير مريح. كان يُدرك أن البدايات عبثية، ولكن هذا بالضبط ما يجذبه إليها، ذلك الشك في قدرته أن ينتزع من الكتابة الإمكانية الطبيعية للرواية، حركة معينة أو شيء ما، أي ما فعله حتى الآن ليبقى على قيد الحياة. قال أيضاً إذا كان ذلك الشيء سيكون هو ما سيدفع الناس لابتياعه وأخذه معهم إلى المنزل. وأضاف أنه سيكون الثمرة غير المتوقعة لطقس منزليّ خاصّ، ليس الغرض منه أن يصعد على سطح العالم، وبالتالي سيبتعد عن الأشياء البائسة التي كانت تعذبه في مهنة الكاتب. في الواقع، اختتم، إننا نتحدث عن مهنة حقيقية. والاسم الممكن لها هو: مهنة الناسخ.

أخذ توم ينصت إليه. كان يحاول أن يفهم.

ـ لا أرى كيف سيمكنك أن تحول الذراع ناصعة البياض والموضوعة بنعومة على أحد الجانبين أو النظرة المضيئة مثل فجر شرقي، قال عند لحظة ما. وبالنسبة إلى ذلك النوع من الأشياء، من الصعب تخيل أن يكتب شخص أفضل من ديكنز أو هاردي.

ـ حسنٌ، بالتأكيد إذا توقفت عند هذا الحد فالفشل مؤكد.

ـ هل أنت موقن بوجود شيء أبعد من ذلك؟

ـ موقن، لا. لا بد أن أحاول، كما قلت لك.

ـ حسنٌ، لنتفق إذًا: أنا سأترك لك المتدربة، ولن أزعجك، ولكن أنت ستعدني أنه في نهاية التجربة إذا لم تجد بالفعل شيئاً ما، ستعود للكتابة. أقصد تأليف الكتب.

ـ ما هذا، تهديد؟

ـ بل شرط. إذا لم تستطع أن تنفذ ما تفكر فيه، ستفعل ما أقوله أنا. سننطلق من مشاهد الكتب التي لن تكتبها أبداً، أو بذلك الذي تريده أنت. ولكن ستعيد الاستوديو إلى جون سيبتيموس هيل، وستوقع عقداً جميلاً جديداً.

ـ يمكنني أن أعثر لنفسي على شخص آخر يقف لي في أوضاع.

ـ ولكنك تريد ريبيكا.

ـ أجل.

ـ إذًا؟

فكر جاسبر غوين أن اللعبة بمجملها تعجبه. فكرة الفشل ستعيده إلى الوراء وإلى رعب الأشياء الاثنين وخمسين التي لا يريد أبداً أن يفعلها مرة أخرى، بدا له فجأة مخيفاً. انتهى الأمر بأن وافق. كانت الساعة تقريباً الثالثة بعد منتصف الليل، ووافق هو. فكر توم أنه على وشك أن يستعيد واحداً من الكتاب القليلين الذي يمثلهم والذي يمكنه اعتباره صديقاً فعليّاً.

ـ غداً سأرسل إليك ريبيكا. هل أرسلها إلى المغسلة كالمعتاد؟

ـ ربما سيكون من الأفضل اختيار مكان مناسب.

ـ في بار فندق ستافورد إذًا. في الخامسة.

ـ حسنٌ.

ـ لا بد أن تذهب.

ـ أجل.

ـ هل قلت لك من قبل إنني أحبك؟

ـ ليس الليلة.

ـ شيء غريب.

وقضيا عشر دقائق أخرى في المزاح مثل اثنين في سن السادسة عشرة.

٢٤.

في اليوم التالي، في الساعة الخامسة، ظهر جاسبر غوين في فندق ستافورد، ولكن فقط من باب الذوق، حيث إنه كان قد قرر أنه سيترك الأمر برمته، حيث وصل إلى خلاصة بأن فكرة التحدث مع تلك الفتاة بعيدة تماماً عن إمكانياته. على كل حال، عندما وصلت ريبيكا، اختار مائدة هادئة، تعلوها نافذة تطل على الشارع، وكانت المداعبات الأولى، الخاصة بالطقس والمواصلات التي في تلك الساعة تجعل كل شيء مستحيلاً، سهلة. على الرغم من اقتناعه بأن يطلب ويسكي، إلا أنه طلب عصير تفاح بالثلج، وتذكر بعض المعجنات المتميزة جدّاً في هذا المكان. قالت ريبيكا، بالنسبة إليَّ فنجان قهوة. ومثل كل الأشخاص السمان لم تلمس حتى المعجنات. كانت متوهجة، بجمالها هذا الذي لا هدف له.

في البداية قالا أشياءَ لا دخل لها بالموضوع، تماماً كما يفعل الجميع، ليستعدا. قالت ريبيكا إن الفنادق الأنيقة تخيفها بعض الشيء، وجعلها جاسبر غوين تلاحظ كيف أن هناك في العالم قليلاً من الأشياء تتميز بجمال أبهاء الفنادق.

قال: أولئك الناس الذين يذهبون ويجيئون، كل تلك الأسرار.

ثم ترك نفسه ليعترف، وهو شيء لم يكُن معتاداً، وقال إنه في حياة أخرى كان سيحب أن يكون بهواً في فندق.

ـ تقصد أن تعمل في بهو؟

ـ لا، لا، بل أن أكون أنا البهو، جسدياً. ولو كان فندقاً ثلاثة نجوم، لن يهمني هذا.

عندئذٍ ضحكت ريبيكا، وعندما سألها جاسبر غوين ماذا تعتقد ستحب أن تكون في الحياة القادمة، قالت نجمة روك مصابة بالأناركسيا، وكانت تبدو إجابة معدة منذ الأزل.

وهكذا بعد وهلة، بدا كل شيء أكثر بساطة، وفكر جاسبر غوين أنه يمكنه أن يجرب بالفعل أن يقول لها ما في ذهنه. دار كثيراً حول الموضوع، ولكن كانت تلك هي طريقته في فعل الأشياء.

ـ هل أستطيع أن أسألكِ يا ريبيكا إذا كنت تثقين بي؟ أقصد، هل أنتِ مقتنعة بأنكِ تجلسين مع شخص مهذب، لن يتسبب يضعكِ أبداً في مواقف، نستطيع أن نسميها، مسيئة؟

ـ أجل، بالتأكيد.

ـ لأنني أحتاج أن أطلب منكِ شيئاً ربما يبدو غريباً.

ـ تفضل.

جاسبر غوين تناول إحدى المعجنات، وكان يحاول أن يختار الكلمات المناسبة.

ـ إليكِ، لقد قررت مؤخراً أن أحاول عمل البورتريهات.

ثنت الفتاة رقبتها بلا معنى.

ـ بطبيعة الحال أنا لا أعرف الرسم، وفي الواقع ما في ذهني هو أن *أكتب* البورتريهات. لا أعرف أنا نفسي بالتحديد ما يعني هذا، ولكنني لدي النية أن أجرب هذا، والفكرة التي راودتني هي أنني أحب أن أبدأ بأن أصنع لك بورتريهاً.

مكثت الفتاة بلا حركة.

ـ وهكذا فإن ذلك الذي أرغب في أن أطلبه منك يا ريبيكا هو إذا كنتِ على استعداد لتصبحي موديلاً لي، في الاستوديو الخاص بي، وأن تتخذي أوضاعاً مختلفة للبورتريه. ولتقريب الفكرة يمكنكِ أن تتخيلي الذي يمكن حدوثه مع رسام، أو مصور فوتوغرافي، لن يكون الأمر مختلفاً كثيراً، فهو الوضع نفسه، إذا استطعتِ تخيله.

توقف قليلاً.

ـ أترغبين في أن أستمر، أو تفضلين أن نتوقف عند هذا الحد؟

انحنت الفتاة قليلاً تجاه المائدة، وأمسكت بين أصابعها بفنجان القهوة. ولكنها لم تضعه على الفور على شفتيها.

وقالت: استمر.

عندئذٍ شرح لها جاسبر غوين.

ـ لقد أجّرت استوديو، خلف ماريلبون هاي ستريت، حجرة كبيرة جدّاً، وهادئة. وضعت فيها فراشاً، ومقعدين، وأشياء قليلة أخرى. الأرضية خشبية، والحوائط قديمة، مكان جميل. ما أريده هو أن تحضري إلى هناك، أربع ساعات في اليوم، لمدة ثلاثين يوماً، من الساعة الرابعة ظهراً إلى الثامنة مساءً. دون أن تتوقفي يوماً واحداً، ولا حتى يوم الأحد. أرغب في أن تصلي تماماً في ميعادك، ومهما حدث أن تمكثي هناك متخذة وضعاً ما، يعني لي ببساطة، أن تتركيني أنظر إليكِ. لا يعني هذا أن عليكِ البقاء في وضع أختاره أنا، ولكن فقط المكوث في تلك الحجرة، حيث تريدين، سواء أن تسيري أو أن تستلقي، أن تجلسي حيث تريدين. لن يكون عليكِ الإجابة على أي أسئلة أو التحدث، بل ولن أطلب منكِ قط أن تقومي بشيء محدد. هل أكمل؟

ـ نعم.

ـ أريدكِ أن تقفي هناك عارية، لأنني أعتقد أنه الشرط الأساسي الذي من خلاله يمكن للبورتريه أن ينجح.

كان قد أعد هذه العبارة أمام المرآة. كانت السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر قد صاغت له الكلمات.

كانت الفتاة ما زالت تمسك بالفنجان في يدها. من حين لآخر كانت تقربه من شفتيها، ولكنها لم تقرر قط أن تشرب.

أخرج جاسبر غوين مفتاحاً من جيبه ووضعه على المائدة.

ـ ما أريده هو أن تأخذي هذا المفتاح وتستخدميه للدخول إلى الاستوديو، كل يوم في الساعة الرابعة ظهراً. لا يهم ما أفعله أنا، لا بد أن تنسيني. لتتصرفي على أساس أنكِ بمفردكِ، هناك بالداخل، طوال الوقت. كل ما أسأله هو أن تذهبي من المكان في تمام الساعة الثامنة مساءً، وأن تغلقي الباب خلفكِ. عندما ننتهي، أعيدي لي المفتاح. اشربي قهوتك، ستبرد.

نظرت الفتاة إلى الفنجان الذي كان بين أصابعها كأنها تراه للمرة الأولى. وضعته على الطبق، دون أن تشرب.

ـ استمر. قالت، وقد تجمد لديها شيء ما، في مكان ما.

ـ لقد تحدثت عن هذا الأمر مع توم. هو موافق أن يمنحك إذناً لمدة تلك الأيام الثلاثين أو الخمس وثلاثين، وفي نهاية تلك الأيام ستعودين إلى عملك في الشركة. أعرف أنه سيكون التزاماً كبيراً من جهتك، ولذلك أعرض عليكِ مبلغ خمسة آلاف جنيه إسترليني كمكافأة عن أي متاعب، وفي مقابل الوقت الذي ستمنحينني إياه. شيء أخير، مهم. في حالة موافقتك، لا بد ألا تتحدثي عن هذا مع أحد، إنه عمل أرغب في القيام به بعد أن أكون قد أعددت له جيداً، ولا أرغب أبداً أن تعرف عنه الصحف أو أي شخص آخر، أي

شيء. أنا، وأنتِ، وتوم سنكون فقط من يعرفون، وبالنسبة إليَّ مهم أيضاً أن الشيء يبقى بيننا. إليكِ، أعتقد أنني قلت لكِ كل شيء. أتذكر أن تلك المعجنات كانت أفضل من ذلك.

ابتسمت الفتاة، ونظرت تجاه النافذة. مكثت بعض الوقت تراقب المارة، ومن حين لآخر كانت تتبعهم بنظراتها. ثم عادت لتحدق إلى جاسبر غوين. وسألته:

ـ هل يمكنني أن أحضر معي بعض الكتب؟

فوجئ جاسبر غوين من إجابته:

ـ لا.

ـ موسيقى؟

ـ ولا حتى موسيقى. أعتقد أن الأمر يتطلب أن يمكث المرء مع نفسه، فحسب. لفترة زمنية ليست غير منطقية إلى حد ما.

وافقت الفتاة، بدا كأنها تفهم.

ـ أتخيل، قالت، أن حول مسألة العري تلك سيكون النقاش بلا فائدة.

ـ صدقيني، سيكون الأمر محرجاً لي أكثر منكِ.

ضحكت الفتاة.

ـ لا، ليس بسبب...

خفضت عينيها. أخذت تضبط بعض ثنيات التنورة.

ـ المرة الأخيرة التي طلب أحدهم أن يراني لم تنتهِ على أكمل وجه.

وأشارت بيدها، كأنها تطرد شيئاً ما.

ـ ولكنني قرأت كتبك، قالت، وأثق بك.

ابتسم جاسبر غوين لها.

ـ هل ترغبين في أن تفكري في الأمر بضعة أيام.

ـ لا.

انحنت للأمام وأخذت المفتاح الذي كان قد وضعه جاسبر غوين على المائدة.

قالت: لنجرب.

ثم مكثا فترة في صمت، كل منهما ومعه أفكاره، كانا يبدوان كزوجين متحابين منذ فترة طويلة جدّاً، ولم يعودا بحاجة إلى الكلام.

في ذلك المساء، فعل جاسبر غوين شيئاً أحمق، وقف عارياً أمام المرآة ووقف هناك ينظر إلى نفسه فترة طويلة. فعل ذلك لأنه كان مقتنعاً أن ريبيكا تفعل الشيء نفسه في منزلها، في تلك اللحظة نفسها.

في اليوم التالي، ذهبا سوياً لزيارة الاستوديو. شرح لها جاسبر غوين عن المفتاح وكل شيء. وشرح لها أنه سيعمل بعد أن يغلق النوافذ بالمصاريع الخشبية، وسيضيء المصابيح. وأوصاها كثيراً ألا تطفئها في طريقها للخارج. وقال لها إنه كان قد وعد شخصاً مسناً ألا يفعل هذا أبداً. لم تسأل عن شيء، ولكن قالت له لا توجد إضاءة. فقال جاسبر غوين إنها على وشك الوصول. في لحظة ما ذهبت لتتمدد على الفراش، ومكثت هناك لفترة، تحدق إلى السقف. وأخذ جاسبر غوين ينظم شيئاً ما في أعلى، حيث كان الحمام: لم يكُن يرغب في أن يوجد معها، في صمت، في ذلك الاستوديو، قبل أن تحين اللحظة المناسبة لأن يفعل ذلك. نزل فقط عندما سمع صوت خطواتها على خشب الغرفة.

قبل أن تخرج، ألقت ريبيكا بنظرة أخيرة حولها.

سألت: وحضرتك، أين ستمكث؟

ـ انسيني، أنا غير موجود.

ابتسمت ريبيكا، وصنعت حركة جميلة بوجهها لتقول أجل، فهمت، وستعتاد على الأمر إن آجلاً أم عاجلاً.

اتفقا على أن يبدآ يوم الاثنين اللاحق.

٢٥.

ببعض الحسابات، كان قد مر عامان وثلاثة أشهر واثنا عشر يوماً منذ أن أعلن جاسبر غوين للعالم أنه سيتوقف عن الكتابة. لم يكُن يعرف أي شيء عن تأثير ذلك على صورته العامة. كان البريد، مثلما كانت العادة القديمة، يصل إلى توم، ومنذ فترة كان جاسبر غوين قد طلب منه ألا يمرره له، حيث إنه توقف عن فتحه. كان نادراً ما يقرأ الصحف، ولم يكُن يتطلع على الإنترنت. في الواقع، منذ أن نشر قائمة الأشياء الاثنين وخمسين التي لن يفعلها أبداً، كان جاسبر غوين قد انزلق في عزلة يمكن للآخرين تفسيرها على أنها انحدار، ولكنه كان هو يحاول أن يعيشها كأنها انعتاق. كان مقتنعاً أنه بعد اثني عشر عاماً من العرض العامّ غير الطبيعي، الذي كان شيئاً حتميّاً بسبب عمله مؤلّفاً، كان يستحق شكلاً ما من أشكال التعافي. كان يتخيل، ربما، أنه عندما سيعود مرة أخرى إلى العمل، من خلال مهنته الجديدة كناسخ، ستستيقظ مرة أخرى كل قطع حياته وستعود لتجتمع من جديد لتكون لوحة يمكن تقديمها مجدداً. وهكذا عندما خرج جاسبر غوين من منزله، ذلك الاثنين، كان متيقناً أنه ليس مقدماً ببساطة على اليوم الأول من عمله الجديد، ولكن على فصل

جديد من وجوده. وهذا يفسر كيف وهو خارج اتجه بإصرار نحو الحلاق الذي يثق فيه، بنية خالصة بأن يحلق رأسه تماماً.

كان محظوظاً. كان المحل مغلقاً لبعض الترميمات.

عندئذٍ استغرق بعض الوقت، وفي العاشرة كان في معمل المسن، صانع المصابيح، في كامدن تاون، كانا قد اتفقا معاً بالهاتف. أخذ المسن من ركن صندوقاً قديمة لمعكرونة إيطالية كان قد أغلقه بلاصق عريض أخضر، وقال إنه جاهز. في التاكسي رفض أن يتركه في صندوق السيارة، وخلال الرحلة كلها أمسك به فوق قدميه. لأنه كان صندوقاً كبيراً فإن المحتوى بالتأكيد كان خفيفاً، حيث كان هناك شيء غير واقعي في الرشاقة التي ترجل بها من التاكسي وصعد بها الدرجات القليلة التي كانت تؤدي إلى استوديو جاسبر غوين.

عندما دخل، توقف لوهلة، على قدميه، دون أن يترك الصندوق.

ـ لقد جئت إلى هنا من قبل.

ـ هل تعجبك الموتوسيكلات القديمة؟

ـ لا أعرف حتى ماذا تكون.

فتحا الصندوق الكبير بحرص وأخرجا ثمانية عشر كاترينا داي ميديتشي. كان كل مصباح منها مغلفاً بمناديل ورقية شديدة النعومة. أحضر جاسبر غوين السلم الذي كان قد ابتاعه من هندي خلف الناصية، ثم ابتعد. استغرق المسن وقتاً طويلاً جدّاً، بسبب أنه كان ينقل السلم، ويصعد، ثم ينزل، ولكنه في النهاية حصل على التأثير الذي تمناه من مصابيح كاترينا داي ميديتشي الثمانية عشر، التي ثبتها في ثمانية عشر حامل مصابيح معلقة في السقف في شكل هندسي. كان منظرها جميلاً حتى وهي مطفأة.

ـ هل ستضيئها سيادتك؟ سأل جاسبر غوين، بعد أن أن أغلق مصاريع النوافذ.

ـ أجل، من الأفضل. أجاب المسن، كأن ضغطة غير دقيقة على مفتاح النور يمكنها أن تفسد كل شيء. ربما كان بالفعل يفكر في هذا بذهنه الحرفي المضطرب.

اقترب من لوحة الكهرباء، وبنظرة ثابتة على مصابيحه ضغط على المفتاح.

مكثا لوهلة في صمت.

سأله جاسبر غوين بضياع: هل قلت لسيادتك إنني أريدها حمراء؟

ـ اصمت.

وبسبب ما، لم يكُن جاسبر غوين قادراً على استيعابه، فإن المصابيح التي كانت أنارت بلون أحمر لامع محولة الاستوديو إلى ماخور، فقدت لونها ببطء حتى استقرت على ظلال ما بين لون العنبر واللون الأزرق التي لم يكُن بالإمكان تعريفها بتعبير آخر سوى «*طفولية*».

تمتم المسن شيئاً ما، راضياً.

قال جاسبر غوين وهو يشعر بالفعل بالتأثر: شيء لا يصدقه عقل.

وقبل أن يخرج، أدار الأسطوانة التي كان قد أعدها له ديفيد باربر، وفي الحجرة الكبيرة بدأ يتدفق تيار من الأصوات التي كانت تسحب، ببطء رائع، تكدسات من أوراق الأشجار الجافة وتناغمات ضبابية لآلات نفخ للأطفال. ألقى جاسبر غوين نظرة أخيرة حوله. كان كل شيء مُعَدّاً.

ـ لا أريد أن أتدخل في شؤونك، ولكن ماذا سيتم هنا في الداخل؟ سأل المسن.

ـ عمل. فأنا أعمل كناسخ.

أومأ المسن برأسه. كان يسجل كيف لم يكُن في الحجرة أي مكتب، حيث لا يوجد سوى فراش ومقعدان. ولكن كان يعرف أن لكل حرفي أسلوبه الخاص.

قال فقط: كنت أعرف، يوماً ما، شخصاً كان يعمل كناسخ.

لم يتعمقا في الموضوع.

أكلا سوياً، في حانة على الجهة الأخرى من الطريق. وعندما تصافحا، بحرارة كريمة، كانت الساعة الثالثة إلا ربع. كانت ما زال هناك أكثر من ساعة على ميعاد وصول ريبيكا، واستعد جاسبر غوين لأن يفعل ما كان يُعد له بالتفاصيل منذ أيام، أن يفعله.

٢٦.

توجه إلى مترو الأنفاق، وركب خط بيكرلو، ونزل في شارينج كروس، ولمدة ساعتين زار بعض مكتبات الأشياء المستعملة، وهو يحاول أن يعثر على دليل لاستخدام الأحبار، ولم يعثر عليه. وبالمصادفة ابتاع السيرة الذاتية لريبيكا ويست، وسرق، بأن أخفاه في جيبه، كتاب مختارات من شعر الهايكو الياباني تعود للقرن السابع عشر. في حوالي الساعة الخامسة، دخل إلى مقهى، لأنه كان في حاجة لاستخدام المرحاض. على المائدة، وهو يشرب الويسكي، كان يتصفح مختارات الهايكو وهو يسأل نفسه مرة أخرى كيف يجب أن يكون ذهن المرء ليتتبع جمالاً مثل هذا. عندما أدرك أن الساعة

أصبحت السادسة، خرج ليذهب إلى سوبرماركت للأغذية العضوية قريباً من المكان، وهناك ابتاع بضعة أشياء للعشاء. ثم اتجه إلى أقرب محطة لمترو الأنفاق، وتعطل قليلاً ليزور مغسلة عثر عليها في طريقه: منذ فترة كانت تكبر لديه فكرة أن يكتب دليلاً عن أفضل مئة مكان يغسل فيها المرء شراشفه في لندن، لذلك لم يكُن يضيع أي فرصة ليطّلع على ما هو جديد. وصل إلى المنزل في الساعة السابعة والثلث. استحم، ووضع أسطوانة لبيلي هوليداي، طها عشاءه، وهو يسخن على نار هادئة شُرْبة العدس التي دفن أسفلها جبنة البارميزان المبشورة. عند الانتهاء من تناول الطعام، ترك المائدة بما عليها، واستلقى على الأريكة، يختار الكتب الثلاثة التي سيكرس لها أمسيته. كانت أمامه رواية بولانيو، ومجموعة قصص كارل باركس مع دونالد داك، والحوار حول المنهج لديكارت. كتابان على الأقل من الثلاثة غيرا العالم. والثالث يحظى باحترام كبير. في التاسعة والربع دق جرس الهاتف. في العادة كان جاسبر غوين لا يجيب، ولكن كان ذلك يوماً خاصاً.

ـ آلو؟

ـ آلو، أنا ريبيكا.

ـ مساء الخير يا ريبيكا.

مرت لحظة طويلة من الصمت.

ـ اعذرني على الإزعاج. كنت فقط أرغب أن أقول لك إنني ذهبت اليوم إلى الاستوديو.

ـ أنا متأكد.

ـ لأن الشك قد انتابني بأنني أخطأت اليوم.

ـ لا، لا، إنه اليوم المُحدد.

ـ حسنٌ إذًا، يمكنني إذًا الذهاب إلى الفراش مطمئنة.

ـ بالتأكيد.

مرت موجة أخرى من الصمت.

ـ لقد ذهبت وفعلت ما قلته لي.

ـ حسنٌ جدّاً. لم تطفئي الأضواء، أليس كذلك؟

ـ لا، تركت كل شيء كما كان.

ـ رائع. إذًا إلى الغد.

ـ أجل.

ـ تصبحين على خير يا ريبيكا.

ـ تصبح على خير. وأعتذر على الإزعاج.

عاد جاسبر غوين ليقرأ. كان في منتصف قصة رائعة. دونالد داك كان يعمل كمندوب مبيعات، وأرسلوه إلى أكثر المناطق الوعرة في آلاسكا. كان يصعد الجبال وينزل الأنهار وهو يحمل معه في كل وقت عينة من البضاعة التي لا بد أن يبيعها. وكان الشيء الجميل هو نوع البضاعة التي عليه بيعها: أرغن من القصب.

ثم انتقل إلى ديكارت.

٢٧.

لكن في اليوم التالي كان موجوداً بالفعل هناك عندما وصلت ريبيكا.

كان جالساً على الأرض، مستنداً على الحائط. في الاستوديو كانت تتصاعد أصوات أسطوانة ديفيد باربر. نهر يجري ببطء.

حيته ريبيكا بابتسامة حذرة. أشار لها جاسبر غوين برأسه. كان يرتدي سترة خفيفة واختار لهذه المناسبة زوج أحذية من الجلد، برباط، بني فاتح. وكانا يمنحان الانطباع الجاد، انطباع العمل.

عندما بدأت ريبيكا نزع ملابسها، نهض هو ليرتب مصاريع إحدى النوافذ، والسبب الأهم أن جلوسه هناك لينظر كان يبدو له شيئاً غير أنيق. تركت هي الملابس فوق أحد المقعدين. الشيء الأخير الذي خلعته كان تي شيرت أسود. لم تكُن ترتدي أسفله أي شيء. ذهبت لتجلس على الفراش. كانت بشرتها بيضاء جدّاً، وكان لديها وشماً في آخر ظهرها.

عاد جاسبر غوين ليجلس على الأرض، حيث كان، وبدأ ينظر. أدهشه ثدياها الصغيران، والشامات الخفية، ولكنه لم يكُن يرغب في التوقف عند التفاصيل، كان يهمه أكثر أن يفهم المجمل، وأن يقود بعض من التناغم تلك الصورة التي كانت تبدو له، لأسباب تحتاج توضيحاً، بلا أي تناسق. فكر في أنها بلا ملابس تعطي انطباع شكل عشوائي. فقد تقريباً على الفور مفهوم الزمن، وأصبح فعل المراقبة البسيط بالنسبة إليه شيئاً طبيعياً. من حين لآخر كان يخفض نظره، كأن نظرة أخرى ستبرز على السطح، لتتنفس.

ظلت ريبيكا لفترة طويلة جالسة على الفراش. ثم رآها جاسبر غوين تنهض وتقيس الغرفة ببطء، في خطوات صغيرة.

كانت تركز عينيها على الأرضية، وتبحث عن نقاط وهمية تضع فوقها قدميها، الصغيرة لطفلة. كانت تتحرك كأنها تجمع في كل مرة

قطعاً من نفسها لم يكُن مقدراً لها أن تبقى معاً. كان جسدها يتبعها كأنه نتيجة جهد إرادي.

عادت نحو الفراش. تمددت على ظهرها، عنقها مستند إلى الوسادة. وتركت عينيها مفتوحتين.

في الثامنة ارتدت ملابسها، ولعدة دقائق أخرى ظلت جالسة تتنفس على المقعد، وهي ترتدي المعطف الواقي من المطر. ثم نهضت وذهبت، وألقت فقط بإشارة تحية عابرة.

لم يتحرك جاسبر غوين لبعض الوقت. عندما نهض، ذهب ليستلقي على الفراش، وأخذ يحدق إلى السقف، ووضع رأسه في تجويف الوسادة الذي تركته ريبيكا خلفها.

ـ كيف كان الحال؟ سألته السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر.

ـ لا أعلم.

ـ ماهرة تلك الفتاة.

ـ لست متأكداً من عودتها.

ـ لمَ لا؟

ـ كل شيء عبثي جدّاً.

ـ إذًا؟

ـ لست واثقاً أنا أيضاً من عودتي.

ولكنه في اليوم التالي عاد.

٢٨.

خطر في باله أن يحضر معه روزنامة. اختارها ليست صغيرة جدّاً، أوراقها بلون الكريم. وبقلم رصاص، ومن حين لآخر، كان

يكتب كلمات، ثم يقطع الورقة الصغيرة ويثبتها بالدبابيس على الأرض الخشبية، وكان يختار في كل مرة مكاناً مختلفاً، كمن يضع الفخاخ للفئران.

وهكذا كان يكتب عبارة، في لحظة ما، ثم يتجول بعض الوقت في الحجرة حتى يختار موقعاً، على الأرض، ليس بعيداً عن مكان ريبيكا في تلك اللحظة، حيث كانت واقفة ومستندة على الحائط. انحنى وثبتها بالدبوس في الخشب، ثم رفع عينيه نحو ريبيكا. لم تكُن قط قريبة منه إلى هذا الحد، منذ أن بدآ. كانت ريبيكا تحدق إلى عينيه. كانت تفعل ذلك بطريقة وديعة، خالية من النوايا. مكثا هكذا يحدق كل منهما إلى الآخر. كانا يتنفسان ببطء، في نهر أصوات ديفيد باربر، ثم خفض جاسبر غوين نظرته.

قبل أن تذهب من المكان، عبرت ريبيكا الحجرة، وذهبت حيث كان جاسبر غوين مختبئاً جالساً على الأرض في أحد الأركان. جلست بجواره، تاركة قدميها مفرودتين، وخبأت يديها بين فخذيها، وظهرها يلمس ظهره. لم تلتفت لتنظر إليه، فقط مكثت هناك، ورأسها مستند إلى الحائط. عندئذٍ شعر جاسبر غوين بذلك القرب الدافئ، واشتم رائحة عطرها. فعل ذلك إلى أن قررت ريبيكا أن تنهض، ارتدت ملابسها ثم رحلت.

عندما مكث بمفرده، دوّن جاسبر غوين شيئاً ما في أوراقه، ثم أخذ يثبتها على الأرض، في مواقع كان يختارها بدقة شديدة.

٢٩.

اعتادت ريبيكا أن تسير حول تلك الوريقات في الأيام التالية، وكانت تصمم مسارات تحملها من وريقة للثانية، كأنها تبحث عن

ملامح صورة ما. لم تتوقف قط لتقرأها، كانت فقط تدور حولها. ببطء رآها جاسبر غوين تتغير في أساليبها، مختلفة في إظهار نفسها، بتصرفات غير متوقعة. ربما كان اليوم السابع، أو الثامن، عندما رآها فجأة متسقة بجمال مدهش، بلا أي تصدعات. استمر ذلك للحظة كأنها كانت تعرف تمام المعرفة إلى أين تُدفع ولم يكُن لديها أي نية للمكوث هناك. وهكذا نقلت ثقلها إلى الجانب الآخر، وهي ترفع يدها لترتب شعرها، لتعود مرة أخرى غير كاملة.

في ذلك اليوم عينه، في لحظة ما، بدأت في التمتمة، بصوت منخفض، وهي مستلقية على الفراش. لم يستطع جاسبر غوين أن يسمع الكلمات، ولم يكُن يريد هذا. ولكنها استمرت للحظات ولحظات، كانت تبتسم من حين لآخر، أو كانت تتوقف في صمت، ثم تبدأ مرة أخرى. كانت تبدو كأنها تحكي شيئاً ما لشخص ما. وبينما كانت تتحدث كانت تسحب كفي يديها إلى الأمام وإلى الخلف على قدميها المفرودتين. وكانت توقفهما عندما تصمت. دون حتى أن يدرك ذلك، انتهى الأمر بجاسبر غوين أن اقترب من فراشها، كمن يتبع حيواناً صغيراً وينتهي به الأمر على بُعد خطوات من جحره. لم يكُن لها أي رد فعل، فقط خفضت نبرة صوتها واستمرت في التحدث، ولكن كانت تحرك شفتيها بالكاد، في همس كان يتوقف من حين لآخر، ثم يعود مرة أخرى.

في اليوم التالي، وبينما كان جاسبر غوين ينظر إليها، امتلأت عيناها بالدموع، ولكن كانت مجرد لحظة، انتقالاً للأفكار، أو ذكريات عابرة.

إذا كان لا بد لجاسبر غوين أن يصرح متى بدأ يفكر في وجود وسيلة ما، ربما كان سيذكر اليوم الذي فيه ارتدت القميص، عند

لحظة معينة. ولكن ليس بطريقة من يتراجع عن قرار ما، ولكن كمن يمضي قدماً أبعد مما قد سبق وقرره. مكثت وهي ترتديه بعض الوقت، وأزراره مفتوحة، وكانت تلعب في كميه. عندئذٍ تحرّك شيء ما فيها، بطريقة يمكن تعريفها بأنها جانبية، وشعر جاسبر غوين، للمرة الأولى، أن ريبيكا تتركه ليتمكن من الغور في ملامحها الشخصية.

في تلك الليلة نجح في السير في الطرقات، وفعل ذلك لساعات، دون أن يشعر بالتعب. لاحظ أن هناك مغاسل لا تغلق أبداً، وسجل الأمر بنوع من الرضا.

٣٠.

لم يعد يراها بعد ذلك سمينة أو جميلة، وأي شيء فكر فيه أو اكتشفه عنها، قبل أن تدخل الاستوديو، تلاشى تماماً، أو ربما لم يكُن له وجود قط. كما بدا له أن الزمن لا يمر، هناك بالداخل، ولكنه بالأحرى يتفكك إلى لحظة واحدة، متشابهة في كل وقت. بدأ يتعرف، أحياناً، على أجزاء من أسطوانة ديفيد باربر، وتكرارها الدوري، بطريقة متماثلة دائماً، كانت تمنح أيَّ عبور نوعاً من الاستقرار الشعري، يفقد أمامه ما يحدث في العالم، خارج ذلك المكان، كل سحر له. كان كل شيء يتخذ شكلاً في ضوء ساكن ذي نبرة طفولية، كان شيئاً ممتعاً إلى أبعد الحدود. كانت روائح الاستوديو، الأتربة التي بدأت تتراكم فوق الأشياء، والقاذورات التي لا يقاومها أحد، كان كل شيء يمنح الانطباع بوجود حيوان في مرحلة سبات، يتنفس ببطء، مختفياً عن الكل. ووصل الأمر لأن يشرح جاسبر غوين للسيدة ذات الوشاح الواقي من المطر أنه يوجد

شيء ما كالمنوم، في كل ذلك، يصل إلى تأثير المخدرات. قالت له السيدة، لا تبالغ. وذكّرته أنه مجرد عمل، عمله ناسخاً. فكر بالأحرى في أن تفعل شيئاً جيداً، أضافت، وإلا فستعود على الفور لتقابل المدرسة القاسية.

سأل جاسبر غوين: كم يوماً أمامنا؟

ـ أعتقد عشرون.

ـ ما زال لدي وقت.

ـ هل كتبت شيئاً؟

ـ ملحوظات. لا شيء له معنى عند قراءته.

ـ إذا كنت مكانك لما شعرت بهذه الطمأنينة.

ـ لست مطمئناً. قلت فقط إنه ما زال هناك وقت. كنت أفكر في أن أبدأ في الفزع خلال بضعة أيام.

ـ إنكم، أيها الشباب، تؤجلون كل شيء.

٣١.

كان عادةً يصل متأخراً، عندما تكون ريبيكا بالفعل في الاستوديو. كان يمكنه التأخر عشر دقائق، ولكن أحياناً كان يتأخر أيضاً ساعة. كان يفعل ذلك عن عمد. كان يحب أن يجدها وقد اختبأت بالفعل في ذاتها داخل النهر الصوتي لديفيد باربر وتلك الإضاءة، بينما يكون هو ما زال يحمل على كتفيه قسوة وإيقاع العالم الخارجي. عندئذٍ كان يدخل محاولاً أن يصنع أقل ضوضاء ممكنة، ويتوقف فوق الأرض، وهو يبحث عنها بنظره كأنه في قفص طيور كبير: وفي اللحظة التي كان يجدها فيها، كانت تلك هي الصورة الأكثر تميزاً

التي تمكث في ذاكرته. كانت هي مع مرور الوقت قد اعتادت، ولم تكُن تتحرك، عند فتح الأبواب، ولكنها كانت تمكث حيث هي. منذ أيام كانا قد أهملا بالفعل أي طقس لا فائدة له من طقوس التحية، سواء في اللقاء أم عند الانصراف.

في أحد الأيام دخل وكانت ريبيكا نائمة. كانت ممدة على الفراش، مستديرة بعض الشيء على جنبها. كانت تتنفس ببطء. قرّب جاسبر غوين بهدوء مقعداً لنهاية الفراش. جلس عليه ومكث طويلاً ينظر إليها. وبطريقة لم يفعلها قط من قبل، من قريب أخذ يتبع التفاصيل، وثنيات جسدها، ودرجات الأبيض على جلدها، الأشياء الصغيرة. لم يكُن يهمه أن يحفرها في ذاكرته، ولكنها كانت ستساعده في لوحته، ولكن من خلال تلك المشاهدة اكتسب نوعاً من القرب الخفي، بدلاً من أن يساعده، أخذه بعيداً. ترك الزمن يمر دون أن يتعجل الأفكار التي كان يشعر بقدومها، نادرة وغير منظمة مثل الناس على الحدود. في لحظة ما فتحت ريبيكا عينيها ورأته. على الفور أغلقت قدميها. ولكنها عادت وفتحتهما مرة أخرى ببطء، واستعادت وضعها الذي كانت قد هجرته، وحدقت إليه لبضع ثوانٍ ثم في النهاية عادت وأغلقت عينيها.

لم يحرك جاسبر غوين المقعد، ذلك اليوم، وكان قد اقترب كثيراً من ريبيكا إلى حد أن بدا من الطبيعي أن ينتهي حيث هي، في البداية من خلال عبور خدر مليء بالصور، حتى الانزلاق إلى النوم، دون أن يبدي أي مقاومة، تاركاً نفسه على المقعد. الشيء الوحيد الذي سمعه كان صوت السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر، التي كانت تقول يا له من أسلوب جيد للعمل.

ولكن، على العكس، فقد بدا طبيعياً لريبيكا عندما فتحت عينيها أن شيئاً ما كان لا بد أن يحدث. الكاتب النائم. يا للوداعة الغريبة!

بصمت تركت الفراش، كانت قد مرت الثامنة. قبل أن ترتدي ملابسها مرة أخرى، اقتربت من جاسبر غوين، ومكثت لتنظر إليه، وفكرت: هذا الرجل. التفتت حولها، ولأن إحدى ذراعيه كانت مستندة إلى ظهر المقعد، يده معلقة في الهواء، اقتربت بجنبها من تلك اليد حتى لمستها، ومكثت لوهلة بلا حراك، وفكرت: أصابع هذا الرجل وعضوي. ارتدت ملابسها بلا أي ضوضاء، وخرجت وهو ما زال نائماً.

ومثل كل مساء، خطت خطواتها الأولى في الطريق بتردد حيوان وُلد للتو.

٣٢.

عادت إلى المنزل وكان هناك فتى.

قال: مرحى ريبيكا.

ـ قلت لك أن تبلغني عندما تعود إلى هنا.

ولكن دون حتى أن تنزع معطفها قبلته.

بعدها، في الليل، قالت له ريبيكا إنها تؤدّي عملاً جديداً. أتخذ أوضاعاً لرسام، قالت.

ـ أنتِ؟

ـ نعم، أنا.

ضحك.

ـ عارية، قالت هي.

ـ لا يمكن.

ـ ليس عملاً سيئاً. كل الأيام، أربع ساعات في اليوم.

ـ يا للملل، وما الذي يدفعك إلى هذا؟

ـ النقود. سيعطيني خمسة آلاف جنيه إسترليني. لا بد أن ندفع، بطريقة ما، أجرة هذا البيت. ما رأيك أنت؟

كان الفتى يعمل كمصور، ولكن لم يكُن يبدو أن هناك من هم على استعداد أن يؤمنوا بموهبته. ولهذا كانت ريبيكا هي من تفكر في كل شيء، الإيجار، الفواتير، الأشياء التي في المبرد. كان هو يختفي من حين لآخر، ثم كان يعود. كانت أشياؤه هناك. كانت ريبيكا عادةً ما تلخص الوضع بمصطلحات بدائية جدّاً. كانت تقول لقد أحببت شخصاً أحمق.

قبل ذلك بشهرين، كان قد قال لها إن صديقاً له يرغب في أخذ بعض اللقطات الفوتوغرافية لها. اتفقا على أن يتقابلا في إحدى الأمسيات، هناك في منزلها. شربا كثيراً وفي النهاية وجدت ريبيكا نفسها عارية على الفراش، مع ذلك الصديق الذي كان يلتقط لها الصور. لم تهتم كثيراً. ولكن في لحظة ما، خلع صديقها الأخرق هذا ملابسه، واقترب منها، بدأ في مطارحتها الغرام. وكان الصديق في ذلك الوقت يلتقط الصور. ثم، لبضعة أيام، لم ترغب ريبيكا قط أن ترى صديقها الغبي هذا. ولكن حتى في ذلك الوقت لم تستطع التوقف عن حبه.

كانت هي تعرف، بالإضافة إلى ذلك، أن جسدها سيقودها دائماً لعلاقات حب عبثية. لن يفكر رجل قط أن يشتهي جسداً كجسدها. ولكن الخبرة علمت ريبيكا، أن العكس صحيح، فكثيرون اشتهوه، وكانت عادةً النتيجة هي جرح ما، لا يرغبون في الاعتراف به. عادةً ما يشعرون بالخوف من جسد المرأة دون أن يعرفوا ذلك. بعض المرات يشعرون بحاجتهم لاحتقاره ليصلوا للإثارة، لذلك فامتلاك

مثل ذلك الجسد يريحهم. تقريباً في كل مرة كانت تتوقع شيئاً من الانحراف في ذلك اللقاء، كأن اختيار ذلك الجمال غير العادي يتطلب بالضرورة هجرة الأساليب الأكثر بساطة واستقامة في الرغبة. وهكذا في سن السابعة والعشرين، كانت ريبيكا قد جمعت بالفعل كومة من الذكريات الخاطئة، التي تعثر فيها بالكاد على العذوبة البسيطة للحظة نظيفة. لم يكُن يهمها. لم يكُن هناك ما يمكنها عمله بهذا الشأن.

ولذلك استمرت في علاقتها بهذا الشاب الأحمق. ولهذا لم تندهش عندما قدم إليها جاسبر غوين ذلك العرض. كان هذا بالضبط نمط الأشياء التي تعلمت أن تتوقعها من الحياة.

٣٣.

في الصباح تركت الشاب الأحمق نائماً في الفراش، وخرجت حتى بدون أن تغتسل. كانت تحمل ليلة من الجنس عليها، وكانت تحب أن تصحبها معها، بأكملها. اليوم ستأخذني هكذا أيها العزيز جاسبر غوين، ولنرَ تأثير ذلك عليك.

لمدة أربع ساعات في الصباح، كانت ما زالت تذهب للعمل لدى توم. كانت تقدّر ذلك الرجل بشدة. منذ أن أجبره حادث سيارة، قبل ثلاثة أعوام، على أن يلزم كرسياً متحركاً، بنى حوله مكتباً ضخماً، شيئاً كالبلدة، التي كان هو فيها الإله. أحاط نفسه بعاملين من كل نوع، بعضهم متقدم جدّاً في السن، والبعض مجنون تماماً. وكان هو ملتصقاً بالهاتف طيلة الوقت. كان يدفع قليلاً، ونادراً ما كان يدفع، ولكن كان هذا شيئاً ثانوياً. كانت لديه طاقة هائلة، وكان

يبث من خلالها حيوية كثيرة حوله، تجعل الناس تعبده. كان أحد هؤلاء الذين إذا صادف ومت يعدون ذلك إساءة شخصية.

حول مسألة الصور الشخصية لم يكُن قط قد قال لها شيئاً. فقط مرة واحدة، عندما كانت ريبيكا قد انتظمت بالفعل منذ بضعة أيام على الذهاب لجاسبر غوين، مر بالقرب منها بكرسيه المتحرك، وتسمر أمام مكتبها وقال لها: إذا سألتك عن أي شيء، قولي لي لتذهب إلى الجحيم.

- حسنٌ.

- كيف يتصرف جاسبر المسن؟

- فلتذهب سيادتك للجحيم.

- رائع.

وهكذا، كانت تنهض في الساعة الواحدة، تأخذ أشياءها وتمر لتصافح توم. وكانا كلاهما يعلمان أين هي ذاهبة، ولكن كانا يتظاهران بأن لا شيء هناك. من حين لآخر كان هو يلقي فقط بنظرة على ما ترتديه. ربما كان يفكر في أنه يمكنه من خلال ذلك استنتاج شيء ما، من يدري.

كانت تذهب إلى استوديو جاسبر غوين بمترو الأنفاق، ولكنها كانت دائماً تتركه قبل وجهتها بمحطة، لتسير قليلاً قبل أن تدخل. في الطريق كانت تلف المفتاح في يدها. تلك كانت طريقتها في بداية العمل. شيء آخر كانت تفعله وهو أنها كانت تفكر في الترتيب الذي به ستخلع ملابسها. كان شيئاً غريباً، ولكن الوقوف بجوار هذا الرجل، كل يوم، كان ينتهي بأن تتعلم نوعاً من الدقة في الإيماءات التي لم تكُن هي تتخيل قط أنها ضرورية. كان يدفع المرء إلى تصديق أن ليس كل شيء متساوياً، وأن هناك شخصاً ما، في مكان

ما، يسجل كل ما نفعله، وأنه في يوم ما، سيطلب، بسهولة، حساب كل شيء.

أدارت المفتاح في ثقب الباب، ودخلت.

لم تلحظ على الفور أنه كان هناك بالفعل. كانت قد تعلمت أن هذا ليست له أهمية. على كل حال لم تكُن تشعر بالاطمئنان إلا عندما تراه، ولم تكُن تشعر بالارتياح إلا عندما ينظر إليها. لم تكُن لتتخيل، قبل ذلك، ولكن الشيء الأكثر غرابة ـ أن وجود ذلك الرجل يحدق إليها ـ قد أصبح الشيء الذي تحتاج إليه، والذي دونه لم تكُن تعثر على نفسها. ولدهشتها فهمت أنها كانت تدرك أنها عارية فقط وهي وحدها، أو إذا لم يكُن هو ينظر إليها. إلا أن الوضع كان يصبح طبيعياً عندما كان هو يحدق إليها، وكانت تشعر بأنها ترتدي ملابسها، إذًا، وبأنها كاملة، كعمل تم إنجازه بدقة. مع مرور الأيام اندهشت من رغبتها في أن يقترب هو منها، وغالباً ما كان يضايقها عندما كان يجلس مستنداً على الجدار، متردداً في أن يحصل على ما يمكن أن تمنحه هي له بلا أي ضيق. ولذلك كان يحدث أحياناً أن تقترب منه هي، ولكن لم يكُن شيئاً سهلاً، حيث كان لا بد لها أن تكون قادرة على أن تتجنب أي سلوك يمكن أن يبدو مغوياً. وكان الأمر ينتهي بأن تكون إيماءاتها مفاجئة وغير دقيقة. وكان عادةً ما يعثر هو على المسافة التي تُبعد الأذى.

في اليوم الذي وصلت فيه إلى المكان حاملة على جسدها آثار ليلتها الجنسية، لم يحضر جاسبر غوين. وكان لدى ربيكا الوقت لتحسب بعض الحسابات، كانت قد مرت ثمانية عشر يوماً منذ أن بدآ. فكرت في أن المصابيح المعلقة في السقف عددها ثمانية عشر. نظراً إلى جنونه، ربما عهد جاسبر غوين بمعنى ما لهذا الحدث،

ربما لهذا السبب لم يحضر. ارتدت ملابسها من جديد في تمام الساعة الثامنة، ثم استغرقها الأمر وقتاً طويلاً لتعود إلى منزلها، كأنها كانت تنتظر أن تسترجع شيئاً ما.

٣٤.

واليوم التالي أيضاً لم يحضر جاسبر غوين. وكانت ريبيكا تشعر بأن الساعات تمر بنوع من البطء الرهيب. كانت متأكدة من أنها ستراه يظهر، ولكن لم يحدث، وعندما ارتدت ملابسها، في الساعة الثامنة بالتحديد، فعلت ذلك بغضب.

في الطريق، وهي تسير في المساء، فكرت في أنها غبية، وأن هذا ليس إلا عمل، ما الذي يهمها هي ـ ولكن أيضاً كانت تحاول أن تتذكر إذا كانت قد قرأت شيئاً غريباً فيه، في المرة الأخيرة التي رأته فيها. كانت تتذكره منحنياً على أوراقه ليس أكثر.

في اليوم التالي وصلت متأخرة، متعمدة: مجرد بضع دقائق، ولكن كانت هي تعرف أن هذا أمر خطير بالنسبة إلى جاسبر غوين. دخلت، وكان الاستوديو مهجوراً. تعرت ريبيكا، ولم تجد في أي مكان النزعة العملية أو البساطة، وكي لا تفكر في شيء، قضت الوقت تقيس التوتر الذي كان يزداد. لم تنجح في عمل ما كان عليها عمله، بأن تكون نفسها، ببساطة، على الرغم من أنها تذكرت جيداً جدّاً كيف كان يبدو الأمر بسيطاً لها في اليوم الأول، عندما ظهر هو. بالتأكيد شيء ما كان يجب أن يحدث، مثل نوع من التجوال. الآن لم تعد تناسبها العودة للوراء إلى أي مكان، ولم يكُن يبدو أي مسار ممكناً، في أي مكان آخر، دونه.

فكرت: أنتِ غبية.

ربما هو مريض، ربما يعمل في المنزل، ربما انتهى بالفعل. أو ربما مات.

كانت تعرف أن هذا ليس حقيقياً، لأن جاسبر غوين كان رجلاً دقيقاً حتى في الخطأ.

تمددت على الفراش، وللمرة الأولى بدا لها أنها تشعر بالخوف بمكوثها وحدها هناك. حاولت أن تتذكر إذا كانت قد أغلقت الباب بالمفتاح. تساءلت إذا كانت متأكدة أن ثلاثة أيام، فعلاً، قد مرت منذ أن رأته آخر مرة. استعادت بذاكرتها تلك الأمسيات الثلاث التي امتلأت باللا شيء. بدا لها الأمر أكثر سوءاً. اهدئي، فكرت. سيحضر، قالت لنفسها. أغلقت عينيها، وبدأت تربت على نفسها، في البداية ببطء شديد، على جسدها ثم بين قدميها. لم تكُن تفكر في شيء محدد، وساعدها ذلك. استدارت قليلاً على أحد جانبيها، لأنها كانت تفضل أن تفعل ذلك في هذا الوضع. فتحت عينيها من جديد، أمامها كان باب الدخول. إذا فُتح لن أتوقف، فكرت. ليس له هو وجود، فقط أنا الموجودة، وهذا هو ما أرغب في عمله الآن، أيها العزيز جاسبر غوين. أشعر برغبة في أن أداعبني. ادخل فقط من هذا الباب، ثم سنرى بعد ذلك ماذا ستكتب. سأستمر في عمل هذا، حتى النهاية، لن يهمني إذا كنت تنظر إليّ. ثم أغمضت عينيها.

في الثامنة نهضت، وارتدت ملابسها، ثم عادت إلى المنزل. فكرت في أنه ما زال أمامها حوالي عشرة أيام، أو ربما أكثر بقليل. لم تستطع أن تفهم إذا كان ذلك قليلاً بالنسبة إليها أم كثيراً. كانت أبدية مُصغرة.

٣٥

في اليوم التالي دخلت إلى الحجرة وكان جاسبر غوين جالساً على مقعد، في إحدى الزوايا. كان يبدو حارس إحدى الصالات، في متحف، يسهر على عمل فنّي معاصر.

تجمدت ريبيكا بعفوية. نظرت إلى جاسبر غوين نظرة متسائلة. اكتفى هو بأن حدق إليها. عندئذٍ تحدثت هي، للمرة الأولى منذ أن بدأ كل شيء.

قالت: لم تأتِ لمدة ثلاثة أيام.

ثم أدركت أن هناك رجلاً آخر. كان واقفاً على قدميه، مستنداً على الجدار في إحدى الزوايا.

رجلان، كان هناك رجل ثالث، جالساً على الدرج الأول من السلم المؤدي إلى المرحاض.

رفعت ريبيكا نبرة صوتها وقالت إن هذا لم يكُن في الاتفاق، ولكن دون أن توضح ماذا تقصد. وقالت أيضاً إنها تتمسك بحريتها في أن تتوقف متى أرادت، وإنه إذا كان يفكر في أنه مقابل خمسة آلاف إسترليني يمكن أن يسمح لنفسه بأن يفعل ما يحلو له، فقد أخطأ خطأ جسيماً. ثم مكثت هناك، بلا حركة، لأنه لم يبدُ أن جاسبر غوين لديه أي رغبة في أن يُجيب.

ـ اللعنة، قالت، ولكنها كانت تقول ذلك لنفسها.

ذهبت لتجلس على الفراش، وهي بملابسها، ومكثت هناك لفترة طويلة.

كانت هناك موسيقى ديفيد باربر تلك.

قررت أنها ليست خائفة.

فهم، إذا اقتضى الأمر، من يجب أن يشعروا بالخوف منها.

نزعت ملابسها بحركات جافة، نهضت، وبدأت في التمشية في الغرفة. كانت بعيدة عن جاسبر غوين، ولكنها كانت تمر بالقرب من الرجلين الآخرين دون أن تنظر إليهما، من أي جحيم أحضرهما، فكرت. وبخطواتها بدأت تسحق وريقات جاسبر غوين، في البداية كانت تمر فوقها، ثم بدأت تمزقها بالفعل بباطن قدميها، وكانت تشعر بقمة الدبابيس وهي تخدش جلدها، ولم يكُن يهمها. اختارت البعض منها، ومزقته، وتركت البعض الآخر. فكرت في أنها مثل خادم يطفئ الشموع في المساء، يدور في القصر، ويترك بعضاً منها مضيئاً، كنوع من النظام للبيت. كانت تعجبها الفكرة ورويداً رويداً توقفت عن أن تفعل ذلك بغضب، وأخذت تفعله بالخضوع المتوقع من ذلك الخادم. أبطأت في خطوتها، وفقدت القسوة في نظرتها. استمرت في إطفاء تلك الوريقات، ولكن بعناية مختلفة، وديعة. وعندما بدا لها أنها انتهت ـ من ذلك الذي بدأته ـ عادت لتستلقي على الفراش، وأغرقت رأسها في الوسادة وهي تغمض عينيها. لم تعد تشعر بالغضب، بل واندهشت من الشعور بأنها وصلت لنوع من الطمأنية، الذي أدركت أنها كانت في انتظارها منذ أيام. لم يكُن أي شيء يتحرك حولها، ولكن في لحظة ما شيء ما تحرك، خطوات، ثم بعد ذلك الضوضاء الجافة للمقعد، ربما أكثر من مقعد، وُضعوا بجوار الفراش. لم تفتح عينيها، لم تكُن في حاجة لأن تعرف. تركت نفسها لتنغمس في ظلام صامت، وكان ذلك الظلام هو ذاتها. كان يمكنها عمل ذلك دون أن تشعر بالخوف، وبسهولة لأن هناك شخصاً ما ينظر إليها ـ وأدركت ذلك على الفور. لسبب ما لم تكُن تفهمه، ادركت أنها كانت أخيراً بمفردها تماماً بشكل لم تختبره من قبل ـ أو نادراً ـ في حضن محبة ما. انتهى بها الأمر بعيدة، بعد أن فقدت كل

شعور بالزمن، وهي تكاد تلمس النعاس. كانت أحياناً تفكر في هذين الرجلين، إذا كانا قد لمساها ـ وفي ذلك الرجل الثالث، الوحيد الذي كانت هناك لأجله.

فتحت عينيها، كانت تخشى أن يكون الوقت قد تأخر. في الحجرة لم يعد هناك أحد. بجوار الفراش كان يوجد مقعد، واحد فقط. لمسته في أثناء خروجها، ببطء بظهر يدها.

٣٦.

عندما دخلت إلى الاستوديو في تمام الساعة الرابعة في اليوم التالي، كان أول شيء رأته هي وريقات جاسبر غوين، التي عادت مرة أخرى إلى مكانها، لم تعد هناك وريقة واحدة ممزقة، كانت جميعها موضوعة من جديد، بمساميرها الصغيرة، كما هي. أصبحت بالمئات الآن، لم يبدُ أن أحداً قد سار فوقها قط. رفعت ريبيكا عينيها، وكان جاسبر غوين هناك، جالساً على الأرض، في ذلك الذي أصبح مخبئاً له، وكان ظهره مستنداً على الجدار. كان كل شيء في مكانه، الضوء، الموسيقى والفراش. كانت المقاعد منظمة على أحد جوانب الحجرة، بالترتيب، فيما عدا ذلك الذي كان يستخدمه هو من حين لآخر، كان موضوعاً في زاوية، وتقويم الوريقات موضوعاً على الأرض. وفكرت في ذلك الشعور بالخلاص الذي لم تعرفه قط من قبل.

خلعت ملابسها، أخذت مقعداً ووضعته في مكان يعجبها، ليس بالقرب جدّاً من جاسبر غوين، وليس بعيداً جدّاً أيضاً، وجلست. مكثا هكذا لمدة طويلة، وكان جاسبر غوين ينظر إليها من حين لآخر، ولكن أغلب الوقت كان يحدق إلى شيء ما في الحجرة،

ويومئ إيماءات صغيرة في الهواء، كأنه يتبع موسيقى ما. كان يبدو كأنه فقد روزنامته، بحث عنها مرتين بنظره، ولكن بعد ذلك، في الواقع، لم ينهض ليلتقطها، كان يريد أن يمكث هناك، مستنداً إلى الجدار. استمر الوضع هكذا، حتى قررت ريبيكا فجأة أن تتحدث.

ـ هذه الليلة فكرت في شيء، قالت.

التفت جاسبر غوين لينظر إليها، وقد فوجئ.

ـ أجل، أعلم، لا يجب أن أتحدث، سأتوقف على الفور.

كان صوتها هادئاً، مطمئناً.

ـ لكن يوجد شيء أحمق قررت أن أفعله. لكنني لم أفهم جيداً، إذا كنت أفعله لنفسي أم لأجلك، أريد أن أقول إنه يبدو لي دقيقاً، مثلما يبدو لي الضوء والموسيقى، كل شيء دقيق، فيما عدا شيئاً واحد. وهكذا قررت أن أفعله.

نهضت، اقتربت من جاسبر غوين، وانحنت أمامه.

ـ أعلم أنه شيء غبي، اعذرني. ولكن اتركني لأفعله.

ومثلما يفعل المرء مع طفل، انحنت فوقه، وببطء خلعت عنه سترته. لم يُبدِ جاسبر غوين أي مقاومة. بدا مطمئناً وهو يرى ريبيكا تطوي سترته بالطريقة الصحيحة وتضعها على الأرض بعناية.

ثم بدأت تفك أزرار قميصه، تاركةً في النهاية زري المعصمين. نزعته عنه ومن جديد طوته بنظام، ووضعته فوق السترة. بدت راضية، ولوهلة لم تتحرك.

ثم عادت قليلاً للوراء، وانحنت لتفك رباط حذائَي جاسبر غوين، ونزعتهما. جاسبر غوين سحب إلى الخلف قدميه لأن كل الآدميين من الذكور يخجلون من جواربهم. وضعت بعد ذلك كل

شيء بنظام، مثلما كان سيفعل هو، وهي حريصة على أن تجعل كل شيء في المستوى نفسه.

نظرت إلى جاسبر غوين وقالت إن هكذا كل شيء أفضل بكثير.

قالت: هكذا كل شيء أكثر دقة.

ثم نهضت وعادت لتجلس فوق المقعد. كان شيئاً غبياً، ولكن كان قلبها يدق كأنها كانت تجري ـ هكذا تماماً كانت تخيلت كل شيء، في الليل، عندما خطر ببالها.

عاد جاسبر غوين ليتجول بنظره، وهو يومئ إيماءات صغيرة في الهواء. لم يبدُ أن شيئاً قد تغير، بالنسبة إليه. كأنه فجأة أصبح حيواناً، فكرت في ذلك ريبيكا. كانت تنظر إلي صدره النحيف وذراعيه الجافتين، وعادت للوراء عندما كان جاسبر غوين بالنسبة إليها كاتباً بعيداً، صورة فوتوغرافية، بعض اللقاءات الصحفية، عادت إلى تلك الأمسيات الكاملة التي كانت تقضيها مخطوفة في قراءة كتبه. تذكرت عندما أرسلها توم للمرة الأولى إلى المغسلة، بذلك الهاتف المحمول. بالنسبة إليها كان الأمر يبدو جنوناً، عندئذٍ توقف توم ليشرح لها قليلاً من يكون جاسبر غوين. حكى لها أنه في كتابه الأخير كان هناك إهداء. ربما تتذكره: «إلى ب. وداعاً». وشرح لها أن «ب.» هو الحرف الأول من بول، كان طفلاً عمره أربعة أعوام، وجاسبر غوين هو أبوه. إلا أنهما لم يلتقيا قط، لسبب بسيط هو أن جاسبر غوين كان قد قرر أنه لن يكون أباً أبداً، ولأي سبب. وكان قادراً على أن يتمسك بهذا القرار بعذوبة وحسم. وحكى لها عن شيء آخر. كان هناك كتابان على الأقل، لجاسبر غوين، يدوران العالم، ولكن ليس باسمه، وبالتأكيد أنه لن يقول لها ما هما. ثم أشار لها توم بقلم أزرق على رأسها وصنع صوتاً بفمه، كأنه نفخة.

ـ إنه ماحي الذاكرة، كما كنت قد شرحت لكِ. أنتِ لا تعرفين أي شيء.

أخذت هي المحمول وذهبت إلى المغسلة. كانت تتذكره جيداً جدّاً، ذلك الرجل، وهو يجلس في وسط الغسالات، أنيقاً، وقد نسي يديه فوق ركبتيه. كان يبدو لها نوعاً من الآلهة، لأنها كانت صغيرة في السن، ولأنها كانت المرة الأولى. في لحظة ما حاول هو أن يقول لها شيئاً ما بخصوص توم والمبرد، ولكن تعبت هي في التركيز، لأنه كان يتحدث دون أن ينظر في عينيها، وبصوت بدا لها كأنها تعرفه منذ الأزل.

الآن ذلك الرجل كان هناك، بصدر نحيف، وذراعين جافتين، وقدمين حافيتين موضوعتين الواحدة فوق الأخرى ـ أثر حيواني أنيق، ملكي. فكرت ريبيكا كم من الطرق كان عليها أن تسير فيها، وكم كانت المسارات الغامضة للخبرة التي قادتها لتجد نفسها تجلس عارية على مقعد، عارية، لينظر إليها رجل قد جذب من بعيد جنونه حتى أحضره إلى هنا، وأعاد ترتيبه حتى أصبح ملجأ له، ولها. وخطر ببالها أنها في كل مرة كانت تقرأ صفحة من صفحات ذلك الرجل، كانت بالفعل مدعوة لذلك الملجأ، وأنه في نهاية الأمر لم يحدث أي شيء، منذ تلك اللحظة، لا شيء على الإطلاق، ربما فقط تناسق الأجساد المتأخر، متأخر دائماً.

منذ ذلك اليوم أخذ جاسبر غوين يعمل وهو يرتدي فقط زوجَي سروال لميكانيكي. كان يمنحه منظر رسام مجنون، وكان هذا يعجبه.

٣٧.

مرت أيام، وفي ظهيرة أحد الأيام انطفأ أحد المصابيح. لقد عمل مسن كامدن تاون جيداً. انطفأ بلا تردد وبصمت كأنه ذكرى ما.

التفتت ريبيكا لتنظر إليه ـ كانت جالسة على الفراش، كان مثل ترنح غير ملحوظ للفضاء. شعرت بوخزة من الحزن، كان من الصعب عليها تجنبها. جاسبر غوين كان قد شرح لها كيف سينتهي كل شيء، والآن كانت تعرف ما سوف يحدث، ولكن لم تكُن تعرف إيقاعه، وسرعته. منذ فترة كانت قد توقفت عن إحصاء الأيام، وكانت دائماً ترفض أن تتساءل كيف سيكون الأمر فيما بعد. كانت تخشى أن تسأل نفسها هذا.

نهض جاسبر غوين، وسار حتى وصل أسفل المصباح المطفأ، وأخذ يراقبه، باهتمام يمكن أن نقول عنه اهتماماً علمياً. لم يكُن يبدو عليه القلق. كان يبدو كأنه يتساءل، ولماذا هذا بالتحديد. ابتسمت ريبيكا. فكرت في إذا كان هو لا يشعر بالخوف، فلا يجب أن تشعر هي أيضاً بالخوف. جلست على الفراش ومن هناك رأت جاسبر غوين يتجول في الاستوديو، رأسه منحنٍ، ولأول مرة يهتم بتلك الوريقات التي كان قد ألصقها بالأرضية، والتي لم يعُد قط لينظر إليها. أخذ واحدة، ثم أخذ أخرى. كان ينزع الدبوس، ويأخذ الوريقة، يضعها في جيبه، ثم بعد ذلك يذهب ليضع الدبوس على حافة إحدى النوافذ، دائماً الحافة نفسها. كان الأمر يستحوذ على كل اهتمامه، وأدركت ريبيكا أنه يمكنها حتى أن تترك المكان وهو لن ينتبه. عندما انطفأ المصباح الثاني، التفتا هما الاثنان لينظرا إليه، لوهلة. كان الأمر يشبه عندما ينظر الناس إلى النجوم المتساقطة في ليالي الصيف. عند لحظة ما بدا أن جاسبر غوين تذكر شيئاً ما،

وعندئذٍ ذهب ليخفض درجة صوت أسطوانة ديفيد باربر. وبيده على مفتاح التحكم كان يحدق بنظره إلى المصابيح، وكان يبحث عن سيمترية ميليمترية.

ذلك اليوم عادت ريبيكا إلى المنزل وقالت للفتى الأحمق إذا كان يستطيع أن يرحل، فقط لبضعة أيام، قالت إنها ترغب في أن تمكث بمفردها لبعض الوقت. وأين أذهب؟ سألها الفتى الأحمق. إلى مكان ما، قالت هي.

في اليوم التالي لم تذهب حتى لتعمل لدى توم.

خطر ببالها أن شيئاً ما سينتهي، وأنها ترغب أن تفعل ذلك جيداً، كانت تريد أن تفعل ذلك فحسب.

يبدو أن فكرة مشابهة خطرت أيضاً لجاسبر غوين، لأنها عندما وصلت إلى الاستوديو، في اليوم التالي، رأت ريبيكا بواقي عشاء، في أحد الأركان، موضوعاً على الأرض، وفهمت أن جاسبر غوين لم يعد إلى المنزل تلك الليلة، ولن يعود حتى ينتهي كل شيء. وفكرت كم كان دقيقاً ذلك الرجل.

٣٨.

كانت هي، من حين لآخر، تعبر بقاع الظلام، كانت تسير كأنها تجرب أن تختفي. كان جاسبر غوين عندئذٍ ينظر إليها، منتظراً شيئاً ما من الظلال. ثم كان يعود لأفكاره. كان يبدو فرحاً، هادئاً، بين بقايا وجبات العشاء، ووجهه الذي لم يحلقه، وشعره المنفوش من ليالي النوم أرضاً. كانت ريبيكا تنظر إليه وتفكر أنه كان لذيذاً إلى حد يصعب تفسيره. من يدري إذا كان قد عثر على ما كان يبحث عنه. لم يكُن في استطاعتها قراءة أي رضا على وجه، ولا ظلال لأي ارتباك.

فقط أثر تركيز محموم ولكن هادئ. جمع بعض الوريقات من الأرض ـ ثم كان يكّوره ويدسه في جيبه. وعلى وجهه تلك النظرة إلى المصابيح في اللحظة التي تستسلم فيها.

ولكن في لحظة ما ذهب ليجلس بجوارها، على الفراش، كأنه أكثر شيء طبيعي في العالم، أخذ يتحدث إليها.

ـ ريبيكا، يبدو لي أنني فهمت شيئاً ما.

مكثت هي في الانتظار.

ـ كنت أعتقد أن عدم الحديث هو شيء ضروري جدّاً، فأنا أهاب الثرثرة، ولم أكُن متأكداً من أنني سأفكر في الدردشة معكِ. ثم كنت أخشى أن ينتهي الأمر كنوع من التحليل النفسي أو الاعتراف. توقعات مرعبة أليس كذلك؟

ابتسمت ريبيكا.

ـ ولكن، في الحقيقة كنت مخطئاً، أضاف جاسبر غوين.

مكث لبرهة في صمت.

ـ الحقيقة إذا كنت أرغب بالفعل في أن أقوم بتلك المهنة فلا بد أن أقبل فكرة التحدث، ولو مرة واحدة، اثنتين كأقصى حد، في اللحظة المناسبة، ولكن لا بد أن أكون كفئاً لذلك.

رفع نظره إلى ريبيكا، وقال:

ـ أن أتحدث قليلاً.

أومأت هي بالموافقة برأسها. كانت عارية تماماً تجلس بجوار رجل يرتدي سروال ميكانيكي، وكان الأمر يبدو لها طبيعياً جدّاً. الشيء الوحيد الذي كانت تسأله لنفسها هو كيف يمكنها مساعدة هذا الرجل.

ـ على سبيل المثال، قبل أن يتأخر الأمر كثيراً، أريد أن أسألك شيئاً، قال جاسبر غوين.

ـ تفضل.

سألها جاسبر غوين. فكرت هي ثم أجابت. كان شيئاً يتعلق بالبكاء والضحك.

استمرا قليلاً في التحدث.

ثم سألها شيئاً آخر يتعلق بالأطفال. الأبناء، حدد السؤال.

وسؤال آخر عن المناظر الطبيعية.

كانا يتحدثان بصوت منخفض، بلا أي عجلة.

استمرا حتى أومأ برأسه مؤيدًا ونهض.

قال: شكراً.

ثم أضاف أن الأمر لم يكُن بهذه الصعوبة. كان يبدو كأنه يقول هذا لنفسه، ولكن أيضاً استدار نحو ريبيكا، كأنه يتوقع منها إجابة ما.

فقالت هي عندئذٍ: لا، لم يكُن صعباً.

قالت، لم يكُن أي شيء هنا بالداخل صعباً.

ذهب جاسبر غوين ليضبط درجة صوت الموسيقى، وبدا كأن أسطوانة ديفيد باربر قد اختفت داخل الجدران، تاركةً شيئاً أكثر قليلاً من الأثر خلفها، في الضوء الشاحب للمصابيح الستة المتبقية.

٣٩.

انتظرا الأخير في صمت، في اليوم السادس والثلاثين من تلك التجربة الغريبة. وعندما جاءت الساعة الثامنة بدا كأن الأمر مفروغ منه

بأنهما سينتظران معاً، لأنه لم يعد هناك وقت سوى ذلك المكتوب على الأسلاك النحاسية التي أنتجتها الموهبة المجنونة لمسن كامدن تاون.

وعلى ضوء المصباحين الأخيرين، كان الاستوديو بالفعل جوالاً أسود، تحافظ على حياته شعلتان من الضوء. وعندما مكثت واحدة فقط، كان كالهمسة.

كانا ينظران من بعيد، دون أن يقتربا، كأنهما لا يرغبان في تلويثها.

كان الوقت ليلاً، وانطفأ المصباح.

من النوافذ المغلقة، كان يمر بالكاد الضوء الكافي ليشير إلى حواف الأشياء، ولم يحدث ذلك على الفور، فقط عندما اعتادت العين على الظلام.

بدا كأن شيئاً قد انتهى، لم يبق سواهما على قيد الحياة.

لم تختبر ريبيكا قط شيئاً بهذه الوطأة من قبل. فكرت في أنه في تلك اللحظة لن تكون أي إيماءة مناسبة، ولكنها فهمت أن العكس أيضاً صحيح، وأنه من المستحيل في تلك اللحظة عمل أي تصرف خاطئ. وهكذا تخيلت أشياءً كثيرة، وبعضها كانت قد بدأت في تخيله بالفعل من فترة سابقة. حتى سمعت صوت جاسبر غوين.

ـ أعتقد أنني سأنتظر نور الصباح هنا في الداخل. ولكنكِ بطبيعة الحال يمكنكِ أن تذهبي الآن يا ريبيكا.

قال ذلك بنوع من العذوبة التي كان يمكن أيضاً أن تبدو ندماً، وهكذا اقتربت منه ريبيكا، وعندما عثرت على الكلمات المناسبة، قالت إنها أيضاً ترغب في أن تجلس وأن تنتظر هنا معه. ذلك فقط.

ولكن لم يقل جاسبر غوين شيئاً، وفهمت هي.

ارتدت ملابسها ببطء، للمرة الأخيرة، وعندما أصبحت أمام الباب توقفت.

ـ أنا متأكدة أنه يجب أن أقول شيئاً إستثنائياً، ولكن، بكل صدق، لا يحضرني أي شيء الآن.

ابتسم جاسبر غوين في الظلام

ـ لا تقلقي، إنها ظاهرة أعرفها جيداً جداً.

تصافحا بأن شد كل منهما على يد الآخر، وبدا ذلك لكليهما يحتوي على دقة وحماقة لا يمكن نسيانهما.

٤٠.

استغرق الأمر جاسبر غوين خمسة أيام ليكتب البورتريه، فعل ذلك في المنزل، أمام الحاسوب، وهو يخرج من حين لآخر ليتمشى، أو ليأكل شيئاً ما. كان يعمل وهو يستمع باستمرار إلى أسطوانات فرانك سيناترا.

عندما فكر في أنه قد انتهى، نقل الملف على أسطوانة، وأخذه معه إلى مطبعة. اختار أوراقاً مربعة من ورق مضلع من النوع الثقيل، وحبراً أزرق يميل إلى السواد. قرر أن يكون ترتيب الصفحات به القدر الكافي من المساحات، دون أن يبدو فارغاً. وبالنسبة إلى نوع الخط، اختار، بعد تفكير طويل، نوع خط يشبه إلى حد كبير نوع الحروف التي كانت تخرج في وقت ما من الآلات الكاتبة، بحيث كان حرف الـ«O» ينتهي أيضاً بعلامة بقعة الحبر. صنع نسختين. في نهاية الأمر بدا على عامل الطباعة الارتباك الواضح.

في اليوم التالي أمضى جاسبر غوين ساعات طويلة بحثاً عن ورق رقيق يبدو في عينيه مناسباً، وملف أوراق لا تكون شرائطه المطاطية

كبيرة جدّاً ولا صغيرة جدّاً، وألا يبدو كملف. وجد ما كان يبحث عنه في محل أدوات مكتبية، على وشك أن يغلق أبوابه، بعد ستة وثمانين عاماً من العمل، وكان يفرغ المخازن.

سأل عندما وصل إلى الخزانة: لماذا ستغلقون؟

أجابت آنسة بشعر غريب، بلا اهتمام ودون أي انفعال: لأن صاحب المكان سيتقاعد.

أصر جاسبر غوين: أليس له أبناء.

رفعت الآنسة نظرها.

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ أنا ابنته.

ـ حسنٌ.

ـ هل تريد ظرفاً للهدايا أم أنه لك؟

ـ إنه هدية.

تنهدت الآنسة بطريقة يمكن بها أن تقول أشياء كثيرة. نزعت الأسعار عن الملف، ووضعت كل شيء في مظروف أنيق مغلق بشريط رفيع مُذهب. ثم قالت إن جدها فتح هذا المحل عندما عاد من الحرب العالمية الأولى واستثمر فيه كل ما كان يملكه. لم يغلقه قط، حتى أسفل القصف في الأربعينيات. كانت تؤكد أنه هو من اخترع نظام غلق الأظرف عن طريق لعق طرفها. ولكن ربما كانت مجرد كذبة.

دفع جاسبر غوين وقال:

ـ لم تعد هناك أظرف من ذلك النوع.

قالت هي: كان جدي يصنعها بطعم الفراولة.

ـ فعلاً؟

ـ هكذا يُقال. بالليمون والفراولة، ولكن لم يرغب الناس تلك التي بطعم الليمون، من يدري لماذا. على كل حال أتذكر أنني جربتها وأنا صغيرة. لم يكُن مذاقها شيئاً معيناً، كان مذاق المادة اللاصقة.

عندئذٍ قال جاسبر غوين: لتأخذيها سيادتك، المكتبة.

ـ لا، أنا أريد أن أغني.

ـ حقاً؟ غناءً أوبرالياً؟

ـ تانجو.

ـ تانجو؟

ـ تانجو.

ـ عظيم.

وسيادتك ماذا تفعل؟

ـ أنا ناسخ.

ـ عظيم.

٤١.

في المساء قرأ جاسبر غوين الورقات السبع المربعة، التي كتبها على عمودين، كانت تحتوي على نص البورتريه. كانت الفكرة هي أن يلفها بعد ذلك في الورق الخفيف، ويضعها في الملف ذي الشريط المطاط. عندئذٍ كان العمل قد انتهى.

ـ كيف يبدو لكِ؟

ـ لا بأس على الإطلاق، أجابت السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر.

ـ كوني صادقة.

ـ أنا صادقة. لقد أردت أن تكتب بورتريهاً، ونجحت. بصراحة لم أكُن سأراهن على هذا ولو بمليم.

ـ لا؟

ـ لا. كتابة بورتريه، أي فكرة تلك؟ ولكن الآن وقد قرأت أوراقك السبع، أعرف أن الفكرة موجودة. لقد عثرت بالفعل على الطريقة المناسبة لتحويلها لشيء حقيقي. ولا بد أن أعترف أنك عثرت على نظام بسيط وعبقري. تحياتي.

ـ إن هذا بفضلكِ أنتِ أيضاً.

ـ حقاً؟

ـ منذ فترة طويلة، ربما لا تتذكرين، لقد قلتِ لي إذا كان لا بد أن أؤدّي عمل الناسخ، على الأقل أن أحاول أن أنسخ الناس، وليس أرقاماً ولا تقارير طبية.

ـ بالتأكيد أتذكر هذا. إنها المرة الوحيدة التي تقابلنا فيها وأنا على قيد الحياة.

ـ قلتِ لي إنني سأنجح جدّاً، أقصد في نسخ الناس. قلتِ هذا بثقة خالية من أي شك، كأنه ليس هناك أي مجال للنقاش.

ـ إذًا؟

ـ لا أعتقد أنني كنت سأصل إلى هذه الفكرة، فكرة كتابة البورتريهات، إذا لم تقولي لي هذه العبارة بتلك الطريقة. بكل صدق، لم أكن لأصل لهذا دونكِ.

عندئذٍ استدارت السيدة وكان وجهها يشبه وجه بعض المعلمات المسنات عندما يسمعن صوت دق الباب، ويكون الطارق ذلك

الجبان من الصف الثاني الذي يأتي ليشكرها يوم تخرجه. قامت بحركة وكأنها تربت ولكنها كانت تنظر في الناحية الأخرى.

قالت: يا لك من تلميذ نجيب.

مكثا بعض الوقت في صمت. أخرجت السيدة ذات المعطف الواقي من المطر منديلاً كبيراً، وتمخطت. ثم وضعت يدها على ذراع جاسبر غوين.

وقالت: هناك شيء لم أقصه عليك قط، هل تريد أن تسمعه؟

ـ بالتأكيد.

ـ في ذلك اليوم، عندما اصطحبتني إلى منزلي... أخذت أفكر في تلك القصة، قصة أنك لا ترغب أن تؤلف كتباً أخرى، ولم أستطع أن أنزع من ذهني أن هذه خسارة فادحة. لم أكُن حتى متأكدة بأنني سألتك لماذا، و في كل الأحوال لم أكُن أتذكر أنك شرحت لي بالفعل كيف لا ترغب في أن تكون لك علاقة بذلك. في نهاية الأمر، ظللت أشعر بأن شيئاً ما ليس على ما يرام، أتفهم ذلك؟

ـ أجل.

ـ استمر الأمر بضعة أيام. ثم في صباح أحد الأيام، ذهبت إلى الهندي المعتاد أسفل المنزل، ورأيت غلاف إحدى المجلات. كانت هناك كومة من تلك المجلة، كانت وصلت للتو، كانوا قد وضعوها أسفل البطاطس المقلية بالجبنة. في ذلك العدد كانوا قد قاموا بحوار مع أحد الكُتّاب، وهكذا على الغلاف كان هناك اسمه وعبارة، كان اسمه مكتوباً بخط جميل وكبير وكانت عبارته بين تنصيص، وكانت العبارة تقول: «في الحب، نكذب جميعاً». أقسم لك. وانتبه أن ذلك كان مؤلفاً كبيراً، يمكنني أن أكون مخطئة، ولكنني أعتقد أنه حصل أيضاً على جائزة نوبل. كان في آخر الغلاف ممثلة عارية بعض

الشيء، وكانت تعد بأنها ستقول كل الحقيقة. لا أدري حول أي أمر غبي.

صمتت لوهلة، كأنها تحاول أن تتذكر الأمر. ثم بعد ذلك قالت شيئاً آخر.

ـ أعلم أن هذا لا يعني شيئاً، ولكن كان يمكنك أن تحرك اليد عشرة سنتيمترات وتأخذ البطاطس بالجبن.

ترددت للحظة.

ـ في الحب نكذب جميعاً، تمتمت وهي تهز رأسها. ثم العبارة التالية قالتها وهي تصرخ.

ـ أحسنت صنعاً يا مستر غوين!

قالت إنها أخذت أن تصرخ العبارة بهذه الطريقة في الحانوت الهندي، والناس تلتفت نحوها.

كررت هذا مرتين أو ثلاث مرات.

أحسنت يا مستر غوين!

اعتقدوا أنها مجنونة.

ـ ولكن كثيراً ما يحدث لي هذا، قالت. أن يظن الناس أنني مجنونة. أوضحت.

عندئذٍ قال جاسبر غوين إنه لا يوجد أحد مثلها، وسألها إذا كانت تحب أن يحتفلا معاً، ذلك المساء.

ـ معذرة؟

ـ ما رأيكِ أن تأتي للعشاء معي؟

ـ لا تنطق بحماقات، فأنا ميتة، ويكرهونني في المطاعم.

ـ على الأقل لنشرب شيئاً.

ـ ما هذا الجنون.

ـ هل تفعلين هذا لأجلي؟

ـ الآن وقت مناسب بالفعل لأرحل.

قالت ذلك بصوت عذب، ولكن حاسم. نهضت، تناولت حقيبتها ومظلتها، التي كانت مبللة دائماً، وذهبت نحو الباب. كانت تجر رجليها بعض الشيء، بتلك الطريقة التي يمكن أن تُعرف بها من بعيد. عندما توقفت كان ذلك لأن لديها شيئاً آخر لتقوله.

ـ كُن مهذباً وخذ تلك الورقات السبع إلى ريبيكا، دعها تقرأها.

ـ هل تظنين أن هذا شيء ضروري؟

ـ بالتأكيد.

ـ ماذا ستقول؟

ـ ستقول: هذا أنا.

جاسبر غوين تساءل إذا كان سيراها مرة أخرى، وقرر أنه سيراها في مكان ما، ولكن ربما خلال بضعة أعوام، في عزلة أخرى.

٤٢.

كان يجلس في مغسلة جديدة، فتحها بعض الباكستان خلف منزله، عندما اقترب منه فتى يرتدي سترة ورباط عنق، ولم يكُن عمره يتجاوز عشرين عاماً.

ـ هل سيادتك جاسبر غوين؟

ـ لا.

ـ أجل إنه سيادتك، قال الفتى، وقدم له محمولاً وقال: المكالمة لسيادتك.

أخذه جاسبر غوين مستسلماً. ولكن أيضاً ببعض السعادة.

ـ إيه يا توم.

ـ هل تعرف من كم يوم لم أتصل بك، يا أخي الكبير؟

ـ قل لي أنت.

ـ واحد وأربعين.

ـ رقم قياسي.

ـ يمكنك أن تقول ذلك. كيف المغسلة؟

ـ فُتحت حديثاً، أنت تعرف الأمر.

ـ لا، لا أعرف، إن لوتي هي التي تغسل لي.

كان بينهما رهان مفتوح، وهكذا بعد أن تبادلا بعض النكات وصلا لهذا الأمر. وكان الأمر يتعلق بمسألة البورتريه.

ـ لم تفصح ريبيكا عن شيء، إذًا فإنه دورك لأن تحكي لي يا جاسبر. أريد أيضاً كل التفاصيل.

ـ هنا في المغسلة؟

ـ لمَ لا؟

في الواقع لم يكُن هناك أي سبب يمنعه من التحدث. ربما بخلاف الفتى ذي السترة ورباط العنق الذي كان يقف بجواره. نظر إليه جاسبر غوين ففهم، وخرج من المغسلة.

ـ لقد انتهيت منه. ونجح.

ـ البورتريه؟

ـ أجل.

ـ نجح بأي معنى؟

لم يكُن جاسبر غوين متأكداً أنه سينجح بأن يشرح نفسه. شعر برغبة في أن ينهض، وربما بأن يسير ذهاباً وإياباً، ربما يستطع بهذه الطريقة.

ـ لم أكُن أعرف بالتحديد ماذا يمكن أن تعني كتابة بورتريه، والآن أعرف ذلك. توجد طريقة ذات معنى لعمله. في نهاية الأمر يمكن أن يكون جيداً أو سيئاً، ولكنه شيء موجود. فهو ليس شيئاً موجوداً فقط في ذهني.

ـ ماذا بحق الشيطان اخترعت إذًا، هل يمكن أن أعرف؟

ـ لا شيء، شيئاً في غاية البساطة. ولكن في واقع الأمر لا يخطر على بالك إلا عندما يخطر على بالك.

ـ واضح جدّاً.

ـ ربما في يوم ما سأشرح لك الأمر بطريقة أفضل.

ـ حسنٌ، على الأقل قل لي شيئاً ما.

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

ـ متى نعيد لجون سيبتيموس هيل الاستوديو الجميل ونوقع بعض العقود؟

ـ لن يحدث هذا قط، على ما أعتقد.

مكث توم بعض الوقت صامتاً، ولم يكُن هذا مؤشراً جيداً.

ـ لقد عثرت على ما كنت أبحث عنه يا توم، وهذا خبر جميل.

ـ ليس جميلاً لوكيلك الأدبي!

ـ توم، لن أؤلف كتباً بعد الآن، وأنت لست وكيلي، أنت صديقي، وعلى ما يبدو أنت أيضاً، حالياً، صديقي الوحيد.

ـ هل لا بد أن أنفجر في البكاء؟

كان من الواضح أنه يشعر بضيق، ولكنه لم يقل ذلك بخبث، كان يشعر فقط بالإحراج أو شيء من هذا القبيل. هل يجب أن أنفجر في البكاء؟

ـ توم...

كان توم يفكر في أن هذه المرة لن يستقيم الأمر.

قال: والآن؟

ـ الآن ماذا؟

ـ ماذا سيحدث الآن يا جاسبر؟

كانت هناك فترة صمت طويلة، بعدها قال جاسبر غوين شيئاً ما، ولكن توم لم يفهمه جيداً.

ـ تكلم في الهاتف يا جاسبر.

ـ لا أعلم بالتحديد.

ـ آه، هذا.

ـ لا أعلم بالتحديد.

ولكن كان هذا حقيقياً إلى حدٍ ما. كان لديه بعض الأفكار، وكانت لديه أيضاً تفاصيل كافية. ربما كان ينقصه بعض الطرق، ولكن كان لديه افتراض ما عن كيفية الاستمرار، مطبوعة بالفعل بصورة واضحة في ذهنه.

ـ أعتقد أنني سأبدأ في عمل البورتريهات، إذا أردت التبسيط.

ـ لا يمكنني أن أصدق هذا.

ـ سأعثر على بعض العملاء، وسأصنع لهم بورتريهات.

وضع توم شيبرد سماعة الهاتف على المكتب، وتحرك للوراء على كرسيه ذي العجلات. خرج من مكتبه، ودخل بمهارة مدهشة الممر وتقدم فيه حتى وصل إلى الباب المفتوح للغرفة التي تعمل بها ريبيكا. وصرخ بما يرغب في قوله دون تحفظات كثيرة:

ـ هل يمكن أن يفهم المرء ما نوع الخراء الذي في رأس ذلك الرجل وأين يرغب في الوصول، والأهم لماذا، لماذا يجب أن يخترع تلك الغباوات بدلاً من أن يفعل ما...

وأدرك أن ريبيكا لم تكُن هناك.

ـ ولكن لتذهبوا جميعاً إلى الجحيم.

التف حول نفسه وعاد إلى المكتب. أخذ السماعة في يده.

ـ جاسبر؟

ـ أنا هنا.

حاول توم أن يعثر على صوت هادئ ولم يجد.

قال: أنا لن أتركك.

ـ أعلم هذا.

ـ هل هناك شيء يمكنني أن أفعله لك؟

ـ بالتأكيد، ولكنه لا يخطر ببالي الآن.

ـ فكر بهدوء.

ـ اتفقنا.

ـ أنت تعرف أين تجدني.

ـ وأنت أيضاً.

ـ في المغسلة.

ـ شيء من هذا القبيل.

مكثا لوهلة في صمت.

ـ جاسبر، هل تعتقد أن من يصنعون البورتريهات لهم وكلاء؟

ـ ليس لدي أدنى فكرة.

ـ سأستعلم.

ثم بعد ذلك، لأيام ولأسابيع لم يعاودا التحدث سوياً في هذا الموضوع لأنهما كانا يعرفان أن قصة البورتريهات تلك تباعد بينهما، وهكذا كان الأمر ينتهي بأن يدورا حولها دون أن يقتربا من قلب الموضوع، خشية من أنهما إذا فعلا ذلك سيكون التباعد أكثر شيئاً حتمياً، مما سيسارع في حلول نوع من الألم الذي لا يرغبان فيه.

بعد يومين من مكالمة توم، تقابل جاسبر غوين مع ريبيكا، كان الطقس جيداً، وفكر في أن يعطيها ميعاداً في ريجينت بارك، في ذلك الشارع العريض، الذي، بدأ كل شيء فيه، بطريقة ما. كان قد أحضر معه الملف وبداخله الأوراق السبع المطبوعة. انتظر وهو يجلس على أريكة معتاد عليها بطريقة ما.

لم يكونا قد التقيا منذ ذلك المصباح الأخير، في الظلام. وصلت ريبيكا، وكان الأمر يتعلق بأن يفهم من أي نقطة يبدأ.

ـ معذرة على التأخير. شخص انتحر في المترو.

ـ هل أنتِ جادة؟

ـ لا، تأخرت فحسب. آسفة.

كانت ترتدي زوجين من الجوارب كالشبكة. وكانا يظهران بالكاد أسفل تنورتها الطويلة. مجرد جزء من الكاحل فحسب. ولكنها كانت

كالشبكة. جاسبر غوين لاحظ أيضاً قرطين فخمين. لم تكُن ترتدي أشياءً من هذا النوع عندما كانت تسلمه الهواتف المحمولة في المغاسل.

قام ببعض المجاملات الدمثة، ولكن دون أن يجد الكلمات المناسبة. نتج عن ذلك شيء مبتذل إلى حد مرعب. كان يفكر في أن يغير الموضوع عندما لاحظ شيئاً جعله يفقد تركيزه وجعله على الفور ينسى الجورب والشبكة وكل شيء.

سألها وهو يشير إلى الكتاب الذي كانت تحمله ريبيكا في يدها: هل تعجبك كلاريسا رود؟

ـ أنا مجنونة بها. ساعدني توم على اكتشافها. لا بد أنها كانت امرأة رائعة. هل تعرف أنها لم تنشر أياً من كتبها وهي على قيد الحياة؟ كانت هي من ترغب في ذلك.

ـ أجل، أعلم هذا.

ـ وعلى الأقل لمدة سبعين عاماً لم يعرف أحد عنها شيئاً. لقد اكتشفوها فقط منذ عشر سنوات. هل سبق وقرأت كتبها؟

تردد جاسبر غوين لوهلة: لا.

ـ خسارة، لا بد أن تقرأ لها.

ـ هل قرأتِ كل كتبها.

ـ حسنٌ، لا يوجد سوى اثنين. ولكن هل تعلم، في تلك الحالات ستستمر أشياء تخرج من الصندوق لأعوام، فأنا أنتظر بثقة.

وضحكا.

لم يتوقف جاسبر غوين عن التحديق في الكتاب، فسألته ريبيكا، وهي تمزح، إذا كان قد طلب منها الحضور ليتحدثا عن الكتب.

ـ لا، لا، معذرة. قال جاسبر غوين.

بدا كأنه يطرد بعيداً شيئاً ما من أفكاره.

قال: لقد طلبت أن أراكِ لأن لديَّ شيئاً لأعطيه لكِ.

أخذ الملف وأعطاه لها.

قال: هذا هو بورتريهك الشخصي.

كانت على وشك أن تأخذه، ولكن جاسبر غوين أمسك به بين يديه لأنه كان يريد أن يضيف شيئاً ما.

ـ لا بد أن تصنعي لي معروفاً بأن تقرأيه هنا، أمام عيني. هل تعتقدين أن هذا ممكن؟ سيساعدني.

أخذت ريبيكا الملف.

ـ لقد توقفت عن أن أقول لك لا منذ مدة طويلة. هل يمكنني فتحه؟

ـ أجل.

فعلت ذلك ببطء. أحصت الأوراق، مررت أصابعها على الأولى، وبدا كأنها تستمتع بملمس الأوراق.

ـ هل قرأها أي شخص آخر؟

ـ لا.

ـ كنت أعتمد على ذلك، أشكرك.

وضعت الورقات على الملف المعلق.

سألت: هل أبدأ؟

ـ عندما تريدين.

كان حولهما صبية يجرون، كلاب ترغب في العودة إلى المنزل وأزواج من المسنين يبدون كأنهم هربوا من شيء مرعب. ربما حياتهم نفسها.

قرأت ريبيكا على مهل، بتركيز وديع شعر نحوه جاسبر غوين بالإعجاب. كان هناك تعبير وحيد على وجهها، كل الوقت: مجرد علامة ابتسامة، ساكنة. عندما كانت تنتهي من ورقة كانت تزحلقها أسفل الأوراق الأخرى. ولكن كانت تتردد للحظة، بينما كانت بالفعل تقرأ السطور الأولى من الصفحة التالية. عندما وصلت إلى النهاية مكثت بعض الوقت هناك، وهي ممسكة بالبورتريه في يدها، ونظرها مرتفع نحو المتنزه. ودون أن تقول أي شيء عادت للأوراق وأخذت تتصفحها، وهي تتوقف هنا وهناك، تعاود قراءتها. من حين لآخر كانت تضم شفتيها، كأن شيئاً ما قرصها، أو لمسها. أعادت ترتيب الأوراق، في النهاية، وأعادتها إلى الملف، وأغلقته بالمطاط، ووضعته على ركبتيها.

سألت: كيف فعلت هذا؟

وكانت عيناها تلمعان.

استعاد جاسبر غوين الملف برقة، كأنه كان من المتفق أن يتم الأمر بهذه الطريقة.

ثم تحدثا طويلاً، وكان يجب أن يشرح جاسبر غوين أشياءَ أكثر مما كان يتوقع. كانت ريبيكا تسأل، ولكن بتحفظ، كأنها تفتح شيئاً هشاً، أو خطابات غير متوقعة. تحدثا في زمن خاص بهما، وحولهما لم يكُن هناك أي شيء. من حين لآخر، وبين سؤال وآخر، كان يمر صمت فارغ، كان فيه كل منهما يقيس كم هو مستعدّ لأن يعرف، أن يفسر، دون أن يفقد متعة غموض ما، كان كلاهما يُدرك أنه ضروري. أمام سؤال مليء بالفضول أكثر من غيره كان جاسبر غوين يبتسم ويجيب بإيماءة ـ بكفّ يده يمررها على عينَي ريبيكا، كأن شخصاً ما يتمنى ليلة سعيدة لطفل.

قالت ريبيكا في النهاية: سأحتفظ بكل شيء لنفسي.

لم يكُن في إمكانها أن تعرف أن هذا لن يحدث.

٤٤.

هناك، على الأريكة الصغيرة، مكثا بعد ذلك لمدة طويلة، بينما كان المتنزه يخبو. كان جاسبر غوين يدير فكرة معيَّنة في رأسه منذ بضعة أيام، والآن كان يتساءل إذا كانت ريبيكا ترغب في الاستماع إليها.

قالت هي: بالتأكيد.

تردد جاسبر غوين بعض الشيء ثم سألها ما كان في ذهنه.

ـ أحتاج إلى مساعدة، لأنهض بعملي الجديد هذا. وفكرت في أنه لن يكون هناك شخص أفضل منكِ للقيام بهذا.

ـ ومعنى هذا؟

جاسبر غوين شرح لها أنه يوجد كثير من الأشياء العملية التي لا بد من تحديدها، وأنه لا يتخيل أنه سيذهب للبحث عن عملاء أو اختيارهم، أو شيء من هذا القبيل. وحتى لا يتكلم عن المقابل، وعن طرق تحديد ذلك أو الحصول عليه. قال إنه يحتاج بالفعل إلى شخص ما ليفعل كل هذا بدلاً منه.

ـ أعرف أن الحل الأكثر منطقية هو أن يكون هذا الشخص هو توم، ولكن الآن يصعب عليّ التحدث معه في هذه القصة، لا أعتقد أنه يرغب في فهمها. يعوزني شخص يصدق ما أفعله، ويعرف أنه بالفعل شيء واقعي وله معنى.

كانت ريبيكا تستمع إليه، مندهشة.

ـ هل ترغب في أن أعمل لديك؟

ـ أجل.

ـ من أجل قصة البورتريهات؟

ـ أجل، فأنتِ الشخص الوحيد في العالم الذي يعرف ماهي بالفعل.

هزت ريبيكا رأسها، بالتأكيد كان هذا الرجل يستمتع بتعقيد حياتها. ومن يدري ربما يحاول أن يحل لها عقدها.

قالت: لحظة، لحظة. ليس بهذه السرعة.

نهضت، وتركت كتاب رود لجاسبر غوين وذهبت تجاه كشك يبيع الآيس كريم، بعيداً في الطريق العريض. ابتاعت قمع آيس كريم بمذاقين ولم يكُن الأمر شديد البساطة لأنها لم تعثر على الفور على محفظتها. عادت إلى الأريكة الصغيرة وجلست من جديد بجوار جاسبر غوين. قربت منه قمع الآيس كريم.

سألته: هل ترغب في التذوق؟

أشار لها جاسبر غوين ليقول لا، لا يريد، ومن بعيد عادت إلى ذهنه حلوى السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر.

ـ أولاً لا بد أن أشرح لك شيئاً، قالت ريبيكا. لقد خرجت من المنزل لأشرحه لك والآن سأشرحه. إذا أردت أن تستمر في عمل البورتريهات ستحتاج إليه.

وجلست بعض الوقت تلعق الآيس كريم.

ـ في ذلك الاستوديو كل شيء سهل بطريقة غير معقولة، أو على الأقل كان الأمر كذلك بالنسبة إليّ. هذا حقيقي، فأنت تجلس هناك، ولا يوجد شيء وبعد لحظة تصبح طبيعياً، بطريقة ما. كل شيء

سهل. فيما عدا النهاية. هذا هو الشيء الذي كنت أود أن أقوله لك. إذا أردت رأيي، النهاية بشعة. حتى أنني تساءلت لماذا، والآن أعتقد أنني أعرف السبب.

كانت حريصة على ألا تُسقط الآيس كريم، وكانت من حين لآخر تلقي عليه نظرة.

ـ يمكن أن يبدو لك الأمر غبياً، ولكن في النهاية كنت أتوقع أنك على الأقل ستأخذني بين ذراعيك.

قالته هكذا، ببساطة شديدة.

ـ ربما كنت سأحب أيضاً أن أمارس الحب معك، هناك، في الظلام، ولكنني بالتأكيد، أقل ما كنت أتوقعه أن ينتهي الأمر هناك، وأنا بين ذراعيك، بطريقة ما، أن ألمسك، إليك، أن *ألمسك*.

كاد جاسبر غوين أن يقول شيئاً، ولكنها أوقفته بإيماءة من يدها.

ـ احترس، لا تكوّن أفكاراً خاطئة، لست مغرمة بك، لا أعتقد، إنه شيء آخر، ويتعلق فقط بتلك اللحظة الخاصة، بذلك الظلام وتلك اللحظة. لا أعرف إذا كنت أستطيع أن أشرح نفسي، ولكن في كل تلك الأيام، وخصوصاً التي تكون فيها جسدك، وأكثر من ذلك بقليل... كل تلك الأيام تجعلك تحمل نوعاً من التوقع أن شيئاً ما جسدياً لا بد أن يحدث في النهاية. شيئاً ما يعيد تركيبك. مسافة تملأها، يمكنني أن أقول ذلك. أنت تملؤها بالكتابة، ولكن أنا؟ نحن؟ كل أولئك الذين سيطلبون منك أن ترسمهم؟ هل سترسلهم إلى المنزل مثلما أرسلتني، بالبعد نفسه في المسافة الذي لليوم الأول؟ حسنٌ، لا أعتقد أنها فكرة جيدة.

وألقت بنظرة على الآيس كريم.

ـ ربما أكون مخطئة، ولكن الشيء نفسه الذي شعرت به سيشعر به الآخرون جميعاً.

وعدلت بعض الشيء من وضع الكريمة.

ـ يوماً ما ستكتب بورتريهاً لرجل مسن، ولن يكون هناك أي فارق، في النهاية سيبحث هذا الرجل عن طريقة ما ليلمسك، ضد أي منطق ورغبة، ولكنه سيشعر بالرغبة في أن يلمسك. سيقترب منك، وسيمرر يده بين شعرك، أو سيمسك بأحد ذراعيك بقوة، ربما فقط ذلك، ولكن سيحتاج أن يفعل ذلك.

رفعت عينيها نحو جاسبر غوين.

ـ حسنٌ، اتركه يفعل ذلك. بطريقةٍ ما أنت مدين له بهذا.

وكانت قد وصلت إلى المرحلة التي فيها يبدأ المرء في مضغ القُمع.

وعلقت: إنه الجزء الأشهى.

تركها جاسبر تنتهى ثم سألها إذا كانت ستعمل لحسابه. ولكن بالنبرة التي كان يمكن من خلالها القول إنه كان مبهوراً بها.

فكرت ريبيكا في أن ذلك الرجل يحبها، إلا أنه لا يعرف، ولن يعرف قط.

ـ بالتأكيد سأعمل لحسابك، قالت. إذا وعدت بأنك ستضع يديك في مكانهما. أمزح. هل يمكن أن تعيد لي كتاب رود، أم ترغب في الاحتفاظ به لقراءته.

بدا كأن جاسبر غوين على وشك أن يقول شيئاً ما، ثم ببساطة أعاد لها الكتاب.

بعد ذلك بثلاثة أسابيع، في بعض المجلات التي اختارتها ريبيكا بعناية، ظهر إعلان، بعد محاولات كثيرة جداً ومناقشات طويلة مع جاسبر غوين كانت قد قررت أن تختصره في ثلاث كلمات خاطفة:

كاتب ينفذ بورتريهات.

وكإحالة لم يكُن هنا شيء سوى صندوق بريد.

كانت السيدة ذات الوشاح الواقي من المطر ستقول إنه لن ينجح.

إلا أن العالم غريب، ونجح الإعلان.

٤٥.

كان البورتريه الأول الذي قام به جاسبر غوين، لرجل عمره ثلاثة وستون عاماً، عاش حياته كلها يبيع ساعات أثرية. كان قد تزوج ثلاث مرات، وفي المرة الأخيرة فكر جيداً في أن يتزوج مرة أخرى من زوجته الأولى. ولكنه طلب منها فقط ألا تتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى. الآن كان قد توقف عن بيع الساعات ذات البندول وساعات جيب من الفضة، وكان يرتدي ساعة كاسيو متعددة الوظائف اشتراها من باكستاني، على قارعة الطريق. كان يعيش في برايتون، وله ثلاثة أبناء. كان يسير طوال الوقت في الاستوديو، ولم يستخدم الفراش ولو لمرة واحدة، في الأربع وثلاثين يوماً من مكوثه في ظلال أصوات ديفيد باربر. عندما كان يشعر بالتعب كان يرتاح في المقعد. كان يحدث كثيراً أن يبدأ الحديث، ولكن بصوت منخفض، بينه وبين نفسه. ومن العبارات القليلة التي استطاع جاسبر غوين أن يفهمها، دون حتى أن يرغب في ذلك، كانت تقول هكذا: «إذا كنت لا تصدقينني، فليس أمامكِ سوى أن تذهبي وتسأليه». في اليوم الثاني عشر سأل إذا كان بإمكانه التدخين ولكن فهم أنه لن يستطيع

هذا. جاسبر غوين شهد تغيراً، خلال الوقت، في الطريقة التي كان يحرك بها كتفيه، وأن يديه أصبحتا أكثر تحرراً، كأن شخصاً ما قد أعادهما إليه. وعندما حان اليوم المحدد للتحدث، فعل ذلك بدقة وبسرور، وهو جالس على الأرض بجوار جاسبر غوين، ويديه موضوعتان بحياء لتخفيا عضوه. لم تدهشه الأسئلة، وكان يجيب على تلك الأكثر صعوبة بعد أن يكون قد فكر فيها طويلاً، ولكن كأنه قد أعد لمدة أعوام الكلمات الصحيحة قال: *عندما كنت صغيراً وكانت أمي تخرج وهي أنيقة، شديدة الجمال في المساء. عندما كنت أشحن الساعات في الصباح في متجري، وكل مرة كنت أذهب إلى النوم، كل مرة بالتحديد.*

انطفأ المصباح الأخير بينما كان ممداً على الأرض، وفي الظلام، سمعه جاسبر غوين، وشعر بنوع من الضيق، وهو يبكي بأسلوب كريم جدّاً، ولكن بلا حياء. اقترب منه وقال له أشكرك يا سيد تراولي. ثم ساعده لينهض. استند مستر تراولي على إحدى ذراعيه، ثم بإحدى يديه بحث عن وجه جاسبر غوين. ربما كان في ذهنه أن يربت عليه، ولكن نتج عن ذلك حضن، ولأول مرة يشعر جاسبر غوين بجلد رجل على جلده.

حصل مستر تراولي على صورته الشخصية في مقابل خمسة عشر ألف جنيه إسترليني، وإقرار بأنه سيلتزم بالسرية التامة، وإلا فسيتعرض لعقوبة تعويضات مالية ثقيلة جدّاً. في المنزل، وبينما كانت زوجته في الخارج، أطفأ كل الأضواء ما عدا واحداً، فتح الملف وقرأ ببطء الورقات الست التي أعدها له جاسبر غوين. في اليوم التالي، أرسل خطاباً ليشكره فيه ويعلن عن رضاه التام. وكان السطر الأخير يقول: «لا يمكنني التوقف عن التفكير في أنه إذا كان هذا حدث منذ أعوام كثيرة مضت لكنت الآن شخصاً مختلفاً، ومن جوانب كثيرة، أفضل». المخلص مستر أندرو تراولي.

البورتريه الثاني، رسمه جاسبر غوين لامرأة في الأربعين من عمرها، غير متزوجة، بعد أن درست العمارة كانت تتسلى بعمليات استيراد وتصدير مع الهند. أقمشة ومصنوعات يدوية، ومن حين لآخر أعمال بعض الفنانين. كانت تعيش مع صديقة لها إيطالية في الطابق العلوي في ضاحية من ضواحي لندن. تعب جاسبر غوين، بعض الشيء، في إقناعها أن عليها أن تغلق الهاتف المحمول وأن تحاول الوصول كل مرة في موعدها. تعلمت هي بسرعة، ودون أن يبدو عليها الضيق. كان من الواضح أنها تحب كثيراً البقاء عارية وأن يُنظر إليها. كان جسدها نحيفاً، كأن انتظار ما لم يتحقق قد التهمها، كان جلدها داكناً، له انعكاسات لامعة كالحيوان. كانت ترتدي عديداً من الأساور والأعقاد والخواتم التي لم تكُن تخلعها قط، وكانت تبدلها كل يوم. سألها جاسبر غوين بعد حوالي عشرة أيام، إذا كانت يمكن أن تقدم نفسها دون أن ترتدي كل تلك الأشياء الرخيصة (لم يقل تلك الكلمات بالتحديد) وأجابت هي أنها ستحاول. في اليوم التالي مكثت عارية تماماً، فيما عدا خلخالاً من الفضة. عندما كان اليوم المحدد للتحدث لم تستطع أن تفعل ذلك دون أن تسير إلى الأمام وإلى الخلف، وهي تشير بيديها كأن الكلمات غير دقيقة دائماً وتحتاج إلى جهاز ملحوظات جسدي. جرؤ جاسبر غوين أن يسألها إذا كان قد سبق لها أن وقعت في حب امرأة، وقالت هي لم يحدث هذا قط، ثم أضافت: هل تريد الحقيقة؟ قال جاسبر غوين، نادراً ما تكون هناك حقيقة.

انطفأ المصباح الأخير بينما كانت تحدق إليه، منومة مغناطيسياً. في الظلام استمع إليها جاسبر غوين وهي تضحك بعصبية. قال لها:

أشكرك يا ميس كرونر، كنتِ ممتازة. ارتدت ملابسها، كانت تضع رداءً صغيراً خفيفاً في ذلك اليوم، وكانت معها حقيبة. أخرجت منها فرشاة للشعر وأسدلت شعرها، الذي كان جميلاً وطويلاً. ثم، في ضوء الظهيرة الذي كان يصل بالكاد من مصاريع النوافذ، ذهبت نحو جاسبر غوين وقالت إنها كانت خبرة غير مفهومة. كانت قريبة جدّاً إلى حد أن جاسبر غوين كان بإمكانه أن يفعل ما كان يتمنى منذ أيام عمله، فقط بدافع الفضول ـ أن يلمس ذلك الانعكاس على جلدها. كان يحاول أن يقنع نفسه ألا يفعل ذلك عندما قبّلته هي على شفتيه، بسرعة، وذهبت.

حصلت ميس كرونر على البورتريه الخاص بها في مقابل خمسة عشر ألف جنيه إسترليني، والإقرار الذي فيه تلتزم بالسرية التامة، وإلا فستواجه عقوبة تعويضات مالية ثقيلة جدّاً. عندما تسلّمت البورتريه، تركته على المكتب لبضعة أيام. انتظرت لتقرأه، في صباح أحد الأيام التي شعرت فيها بأنها كالملكة. كان يحدث لها هذا من حين لآخر. في اليوم التالي، اتصلت بريبيكا، وفعلت الأمر نفسه، أكثر من مرة، في الأيام التالية، حتى اقتنعت بأنه لن يكون ممكناً أن تقابل جاسبر غوين مرة أخرى وأن تتحدث معه قليلاً. لا، ولا حتى مشروباً فاتحاً للشهية كصديقين، كان الأمر خارج المناقشة. عندئذٍ أخذت ورقة من أوراق الخطابات الخاصة بها (ورق أرز بلون العنبر) وكتبت سطوراً قليلة دفعة واحدة.

في السطر الأخير كانت تقول: «أحسدك يا أستاذ على موهبتك وعلى حسمك، على يديك الجميلتين، وعلى سكرتيرتك، اللذيذة بالفعل». المخلصة إليزابيث كرونر.

٤٧.

البورتريه الثالث صنعه جاسبر غوين لامرأة كانت على وشك أن تُكمل عامها الخمسين، وكانت قد طلبت من زوجها أن يهديها شيئاً يدهشها. لم تكُن قد رأت الإعلان، ولم تتعامل هي مع ريبيكا، ولم تختر أن تفعل ما كانت تفعله. عندما وصلت، في اليوم الأول، كانت تبدو متشككة، ولم ترغب في أن تخلع ملابسها بالكامل. ظلت ترتدي رداءها الداخلي الحرير بلون البنفسج. في شبابها كانت تعمل مضيفة، لأنها كانت تحتاج لأن تعول نفسها ولتضع بضعة كيلو مترات بينها وبين عائلة ترغب في نسيانها. تعرف عليها زوجها في الرحلة لندن ـ دبلن. كان يجلس في المقعد D19، وكان يكبرها حينئذٍ بأحد عشر عاماً. حالياً، كما يحدث غالباً، أصبح لهما العمر نفسه. في اليوم الثالث نزعت الرداء الداخلي، وبعدها بيومين أصبح جاسبر غوين، دون أن يعلم ذلك، الرجل السادس الذي رآها عارية تماماً. في ظهيرة أحد الأيام، جعلها جاسبر غوين تجد كل مصاريع النوافذ مفتوحة، وترددت هي لوهلة. لكن بعد ذلك بدا كأنها اعتادت، ومع مرور الوقت وصلت إلى حد الإعجاب بأن تتلكأ أمام زجاج النوافذ، دون أن تتغطى، وهي تلمس الزجاج بنهديها، ناصعي البياض والجمال. في أحد الأيام عبر المدق صبي، ليأخذ دراجة، وابتسمت له. بعد ذلك ببضعة أيام، قام جاسبر غوين ليغلق المصاريع وبطريقة ما، منذ تلك اللحظة، استسلمت هي للبورتريه ـ بوجه مختلف وجسم مختلف. عندما جاء اليوم المحدد للتحدث فعلت ذلك بصوت طفلة، وطلبت من جاسبر غوين أن يجلس بجوارها. كانت تبدو كأن كل سؤال يفاجئها، ولكن كانت كل إجابة لها فريدة في دقتها. تحدثا عن العواصف، عن الانتقام وعن الانتظار. قالت هي، عند لحظة ما، إنها كانت تتمنى عالماً بلا أرقام، وحياة بلا تكرار.

انطفأ المصباح الأخير بينما كانت تسير ببطء، وهي تغني بصوت منخفض. في الظلام لمحها جاسبر غوين تستكمل ببطء وهي تتلمس الجدران. انتظر عندما اقتربت منه وقال لها، شكراً يا مسز هاربر، كان كل شيء رائعاً. توقفت هي، وبصوت طفلة سألته إذا كان يمكنها أن تطلب منه شيئاً. جربي، أجابها جاسبر غوين. قالت له: أريدك أن تساعدني في ارتداء ملابسي، وأضافت: بلطف. فعل جاسبر غوين هذا. إنها المرة الأولى التي يفعل فيها أحد لي هذا. قالت له.

حصلت مسز هاربر على صورتها الشخصية في مقابل ثمانية آلاف جنيه إسترليني وإقرار يلزمها بالسرية التامة، وإلا فستكون عاقبة ذلك غرامة مالية ثقيلة جداً. سلمها لها زوجها عشية عيد ميلادها، وكانت المائدة مجهزة فقط لاثنين، في ضوء الشموع. كان قد غلف الملف بورق مذهب وشريط أزرق. فتحت الهدية وجلست أمام المائدة، دون أن تقول أي شيء، قرأت بسرعة الورقات الأربع التي كتبها لها جاسبر غوين. عندما انتهت، رفعت نظرها إلى زوجها، ولوهلة فكرت بأن لا شيء يمكن أن يمنعهما عن أن يموتا معاً، بعد أن يعيشا معاً إلى الأبد. في اليوم التالي، استلمت ريبيكا بريداً إلكترونياً من السيد والسيدة هاربر يشكران فيه الفرصة الرائعة ويرجوان أن تُبلغ السيد غوين أنهما سيحافظا بغيرة على البورتريه، ولن يطلعا عليه أحد، لأنه أصبح أكثر شيء ثمين مُنح لهما ليملكاه. المخلصان آن وجودفريد هاربر.

٤٨.

البورتريه الرابع صنعه جاسبر غوين لفتى في الثانية والثلاثين من عمره، درس الاقتصاد ونجح نجاحاً عظيماً، ثم ترك الدراسة قبل

الانتهاء من خمسة امتحانات والآن يعمل رساماً، ونال بعض النجاح. الأبوان ـ كلاهما نموذج للجزء العلوي من الطبقة الوسطى في لندن ـ لم يقدرا ذلك. وحتى بضعة أعوام مضت كان سباحاً ماهراً، أما الآن فجسده غير واضح، كأنه انعكاس في ملعقة. كان يحركه ببطء ولكن بلا ثقة، مما يعطي الانطباع بأنه يعيش في مكان مليء بالأدوات الهشة جدّاً التي يمكنه هو فقط تمييزها. حتى إضاءة لوحاته ـ مناظر طبيعية صناعية ـ كانت تبدو كأنها شيء ما هو فقط يعرفه. منذ فترة كان قد فكر هو أيضاً أن يرسم البورتريهات، وخصوصاً للأطفال، وعندما كان على وشك أن يفهم ما الذي يهمه بالفعل في تلك المحاولة، وقع أمامه، بالمصادفة، إعلان جاسبر غوين، وبدا له ذلك كعلامة. في الواقع كان الذي يتوقعه هو لقاء يمكنه من خلاله، لمدة طويلة، وفي هدوء استوديو ما، أن يتحاور حول معنى رسم صور الأحياء، وهكذا في الأيام الأولى، ضايقه صمت جاسبر غوين، وحسمه في مطالبته أن يلتزم الصمت هو أيضاً بدوره. كان قد بدأ أن يعتاد، وأن يشعر بالتقدير لهذا الإجبار حتى فكر في أن يضعه أيضاً في اعتباره كقاعدة يطبقها، عندما حدث شيء بدا له طبيعياً، ولكنه في الواقع لم يكُن كذلك. كانت ما زالت أمامه ساعة لتصبح الثامنة، ودق أحدهم على الباب. رأى أن جاسبر غوين لم تبدُ عليه علامات أنه قد أدرك ذلك. ولكن من الخارج عادوا ليدقوا، واستمر من يفعل ذلك في فعله بإصرار مزعج. عندئذٍ نهض جاسبر غوين ـ كان يجلس على الأرض، مستنداً على الجدار، في زاوية كانت تبدو كأنها كهفه ـ وبتعبير الدهشة المتناهية على وجهه ذهب نحو الباب وفتحه.

كان هناك شاب في حوالي العشرين وكان ممسكاً بهاتف محمول في يده.

وقال: لسيادتك.

جاسبر غوين كان عاري الجذع يرتدي سروال الميكانيكي المعتاد. لم يستطع تصديق هذا. أخذ المحمول.

ـ توم، هل فقدت عقلك؟

ولكن على الجهة الأخرى لم يجبه صوت توم. سمع فقط لشخص يبكي، بكاءً خافتاً جدّاً.

ـ آلو!

واستمر ذلك البكاء.

ـ توم، ما هذا المزاح السخيف؟، ألا ترغب في التوقف؟

عندئذٍ من ذلك البكاء الخافت خرج صوت لوتي لتقول له إن توم في حالة سيئة، وإنه في المستشفى.

ـ في المستشفى؟

قالت لوتي إن الأمور ليست على ما يرام على الإطلاق، ثم عادت لتبكي من جديد، وفي النهاية ترجته أن يحضر إليهم على الفور هناك، وتوسلت إليه. ثم قالت له اسم المستشفى وعنوانه، لأنها كانت سيدة عملية، كانت دائماً هكذا.

ـ انتظري، قال لها جاسبر غوين.

دخل إلى الاستوديو وأخذ البلوك نوت، وطلب منها: هل يمكن أن تكرري هذا؟

كررت لوتي الاسم والعنوان، وكتبهما جاسبر غوين على إحدى الورقات بلون الكريم. وبينما كان يرى الحبر الأزرق يستقر على الورقة ليسجل رعب اسم مستشفى ونثر عنوان بشع، تذكر الهشاشة

التي لا يمكن التعبير عنها لأي شيء ساحر، وسرعة الحياة الرهيبة في سرقته.

قال للشاب إنه لا بد أن يتوقف. وفجأة رآه عارياً بلا حدود ـ وبطريقة عبثية مثيرة للسخرية.

٤٩.

لأن الطبيعة البشرية مسكينة إلى حد الدهشة، فكر جاسبر غوين، وهو في التاكسي، في كم البشر الذي لا بد وأن يقابله في المستشفى، من زملاء ومحررين وصحفيين، وكان لا بد من أن يتوقع كمية لا بأس بها من اللقاءات المنهكة. فكر في الوجوه التي ستسأله عما يفعله حالياً. أمر بشع، فكر. ولكن عندما صعد إلى القسم، كانت هناك لوتي فقط لمقابلته، في الممر المهجور.

ـ لم يرغب في أحد، لم يرغب أن يراه أحد هكذا، قالت له. سأل فقط عنك أنت، ألف مرة، لحسن الحظ أنك أتيت، كان يسأل فقط عنك أنت.

لم يجبها جاسبر غوين لأنه كان ما زال ينظر إليها، فاقداً تركيزه. كانت ترتدي كعباً رفيعاً وتايوراً قصيراً جذاباً.

قالت: أعلم. إن توم هو من طلب مني هذا. قال لي إن هذا يحسّن من معنوياته.

أومأ جاسبر غوين. فقد كانت فتحة الصدر من النوع الذي يرفع المعنويات.

وأضافت لوتي: يغضب جداً إذا بكيت. هل يمكنك أن تبقى هنا بعض الوقت؟ تقتلني الرغبة في الذهاب إلى مكان ما لأنتحب كما يحلو لي.

في الحجرة، كان توم بروس شيبرد راقداً بين الأنابيب والآلات، وصغر حجمه جدّاً أسفل الملاءة والأغطية التي لا وجود للونها ـ لون المستشفى. قرَّب جاسبر غوين مقعداً للفراش وجلس. فتح توم عينيه. يا للقرف، قال بصوت منخفض. كانت شفتاه جافتين، ولا ضوء في نظرته. ولكنه عندئذٍ التفت قليلاً، وعرف جاسبر غوين، عندئذٍ تغير.

رويداً رويداً وببطء بدآ التحدث. كان توم يريد أن يقص عليه ما حدث في القلب في مكان ما، شيء معقد. سيحاولون إجراء جراحة ما خلال يومين، قال. ولكن المحاولة ليست فعلاً عظيماً. أشار.

قال جاسبر غوين: ستنجح، مثلما حدث المرة الأخرى، وستنجو منها تماماً.

ـ ربما.

ـ كيف يمكنك أن تقول *ربما*؟

ـ أعتقد أنني أفضّل أن نغير الموضوع.

ـ موافق.

ـ حاول أن تفعل شيئاً ما لا يحبطني.

ـ تايور لوتي جد عظيم.

ـ الخنزير المعتاد.

ـ أنا؟ أنت الخنزير، أنت من طلبت منها أن ترتديه.

ابتسم توم للمرة الأولى. ثم أغلق عينيه. كان من الواضح أن التكلم يتعبه. مرر جاسبر غوين يده على شعره، ثم مكثا هكذا لوهلة، معاً فحسب.

ولكن بعد ذلك، دون أن يفتح عينيه، قال توم لجاسبر غوين إن لديه سبباً خاصاً لأجله دعاه، حتى وإن كان لا شيء في العالم يمكن

أن يجعله يرغب في أن يراه في هذا الحالة المقززة. استعاد انفاسه، ثم قال له إن السبب هي قصة البورتريه.

وقال: لا يحلو لي أن أرحل من الدنيا دون أن أعرف ما هذا الشيء الذي اخترعته.

نقل جاسبر غوين الفراش ليصبح أقرب لرأس توم، وقال:

ـ أنت لن تذهب إلى أي مكان.

ـ كان مجرد قول.

ـ جرب فقط أن تكرره وسأبيع كل قائمتي الاحتياطية لأندرو وايلي.

ـ لن يعمل معك أبداً.

ـ هذا ما تقوله أنت.

ـ حسنٌ، ولكن الآن استمع إليّ.

ومن حين لآخر كان يتوقف ليلتقط أنفاسه، أو طرف الحديث الذي كان يهرب منه، ذلك الوغد.

ـ لقد فكرت في الأمر، في قصة البورتريهات تلك... حسنٌ، لا أرغب في أن أسمع مزيداً من الثرثرة، لقد خطرت لي فكرة أفضل.

وأمسك بيد جاسبر غوين.

ـ افعله.

ـ ماذا؟

ـ اكتب لي بورتريهاً. وسأفهم.

ـ بورتريهاً لك أنت؟

ـ أجل.

ـ الآن.

ـ هنا. وأمامك يومان. ولا تبدأ في تضليلي بكل تلك القصص بأنك في حاجة إلى شهر وإلى الاستوديو وإلى الموسيقى...

شد بقوة على يد جاسبر غوين. كانت قوة غير منطقية، لم يكُن أحد ليعرف من أين أتت.

ـ فقط نفذه. إذا كنت تستطيع عمل ذلك، سيمكنك عمله هنا أيضاً.

فكر جاسبر في عديد من الاعتراضات، وكلها ذات معنى، ثم فهم بوضوح مطلق عبثية الموقف، وندم لأنه لم يشرح كل شيء في اللحظة المناسبة، التي كانت قبل ذلك بمدة طويلة، وبالتأكيد لم تكُن في تلك اللحظة، وفي تلك الغرفة في المستشفى.

ـ ليس هذا ممكناً يا توم.

ـ لماذا؟

ـ لأنها ليست لعبة بريستيج. إن الأمر مثل عبور الصحراء، أو تسلق جبل ما. لا يمكن للمرء أن يفعل ذلك في صالة لمجرد أن طفلاً يحبه كثيراً قد طلب منه ذلك. لنفعل هذا: سيجرون الجراحة، وكل شيء سيسير على أحسن حال، وعندما تعود إلى المنزل، سأشرح لك كل شيء، أقسم لك.

خفف توم قبضته على يده، ولوهلة مكث في صمت. كان يتنفس بصعوبة الآن.

ـ الأمر ليس فقط كذلك. قال في النهاية.

كان لا بد وأن ينحني جاسبر غوين قليلاً ليتمكن من أن يسمع جيداً.

ـ يهمني أن أعرف الذي تفعله، ولكن ليس هذا كل شيء.

عاد ليمسك بقوة بيد جاسبر غوين.

ـ في إحدى المرات قلت لي إن عمل البورتريه لشخص هو طريقة ما لإعادته إلى مسكنه. أليس كذلك؟

ـ أجل، شيء من هذا القبيل.

ـ طريقة لإعادته إلى مسكنه.

ـ أجل.

سلَّك توم حنجرته. كان يريده أن يفهم جيداً ذلك الذي سيقوله.

ـ أعِدْني إلى مسكني يا جاسبر.

وسلَّك مرة أخرى حنجرته، قال.

ـ ليس لدي كثير من الوقت وأحتاج أن أعود إلى مسكني.

رفع جاسبر غوين نظرته لأنه كان يريد أن ينظر إلى عيني توم. كان هناك كل تلك الآلات، لون الجدران، ختم المستشفى في كل مكان. فكر في أن كل شيء كان عبثياً.

قال: سينتج شيء مقزز.

خفف توم بروس شيبرد من قبضته، أغمض عينيه وقال:

ـ وهل تظنني سأدفع لك شيئاً؟

٥٠.

وهكذا لمدة يومين وليلتين، مكث جاسبر غوين في المستشفى، تقريباً دون أن ينام، لأنه كان يريد أن يكتب بورتريهاً لصديقه الوحيد الباقي له على قيد الحياة. جلس في ركن، على مقعد، وكان يرى

الأطباء والممرضات يمرون دون أن يروه. كان يقتات على القهوة والشطائر، ومن حين لآخر يمد قدميه في الممر. كانت لوتي تأتي ولا تجرؤ على أن تقول أي شيء.

في فراشه، بدا كأن توم يصبح أصغر حجماً في كل ساعة، وكان الصمت الذي يعيش فيه يشبه الاختفاء الغامض. من حين لآخر كان يلتفت نحو الزاوية التي يتوقع فيها رؤية جاسبر غوين، وكان يبدو دائماً أن واقع عدم رؤيته خاوياً يريحه. عندما كانوا يأخذونه إلى الخارج لفحص ما، كان جاسبر غوين يحدق إلى الفراش المكرمش وفي تلك الفوضى من الملاءات كان يبدو له أنه يعثر على شكل ما من العري المبالغ فيه إلى حد أنه لا يشعر بحاجته إلى أي جسد.

كان يعمل وهو يضفر الذكريات مع ذلك الذي استطاع الآن أن يراه في توم، ولم يكُن قد رآه قط من قبل. لم يتوقف الأمر لحظة واحدة على أن يكون عملاً عسيراً ومؤلماً. لم يكُن الأمر يشبه ما كان عليه في الاستوديو في ظل موسيقى ديفيد باربر، وكانت أي قاعدة يحاول أن يطبقها هناك تبدو مستحيلة. لم تكُن لديه أوراقه، كانت تنقصه مصابيح كاترينا داي ميديتشي، وكان يجد صعوبة في التفكير وكل تلك الأدوات، التي لم يخترعها، تحيط به. لم يكُن الوقت كافياً، كانت لحظات الوحدة نادرة، واحتمالات الفشل كثيرة.

إلا أنه في الليلة السابقة للجراحة، في حوالي الساعة الحادية عشرة، سأل جاسبر غوين إذا كان هناك حاسوب في القسم يمكن أن يستخدمه في كتابة شيء ما. انتهى أمره في حجرة الإدارة، حيث أعطوه مكتباً وكلمة المرور الخاصة بحاسوب إحدى الموظفات. لم يكُن إجراءً معتاداً وأفهموه ذلك مؤكدين عليه. على المكتب كانت هناك صورتان في بروازين، ومجموعة من الفئران البائسة المطاطية.

عدّل جاسبر غوين جلسته على المقعد، الذي كان مرتفعاً بدرجة مزعجة. رأى بفزع قذارة لوحة المفاتيح، وكان الأمر لا يُحتمل في المفاتيح الأكثر استخداماً. كان يعتقد أن الأمر يجب أن يكون العكس. نهض وذهب ليطفئ المصباح النيون المركزي وعاد حيث الفئران الصغيرة. أضاء مصباح المكتب، وبدأ يكتب.

بعد ذلك بخمس ساعات استطاع أن يفهم أين الطابعة، التي كان يسمعها جيداً، كانت تتفل البورتريه خارجها. عجيب المكان الذي يضعون فيه الطابعات في المكاتب، عندما تكون هناك طابعة واحدة للجميع. كان لا بد أن يعيد إضاءة النيون المركزي ليميزها، وفي النهاية وضع الورقات التسع في يده، والمطبوعة بخط لا يعجبه كثيراً، ومرقمة بتفاهة مهينة. كان كل شيء خاطئاً، ولكن كان كل شيء أيضاً كما يجب أن يكون ـ دقة عاجلة، نزع منها رفاهية التفاصيل. لم يمكث ليعيد قراءتها، وضع فقط أرقام الصفحات. كان قد طبع نسختين، ثنى منهما واحدة إلى أربع، ووضعها في جيبه، ثم اتجه نحو غرفة توم والأخرى في يده.

كانت تقريباً الرابعة صباحاً، لم يحاول حتى أن يتأكد. في الغرفة كان هناك مصباح واحد فقط مضيء، ساخن إلى حد كبير، خلف الفراش. كان توم نائماً ورأسه يميل إلى ناحية. كانت الآلات المُعلقة به تنقل شيئاً ما وهي تصدر أصواتاً صغيرة، كريهة. قرَّب جاسبر غوين مقعداً للفراش. لم يكُن لهذا أي معنى، ولكنه وضع يده على كتف توم وبدأ يهزه، ولم يكُن ما يفعله من نوع الأشياء التي يمكن أن تعجب ممرضة في أثناء مرورها، وكان هو يدرك هذا. قرَّب فمه من أذن توم ونطق باسمه أكثر من مرة. فتح توم عينيه.

قال: لم أكُن نائماً، كنت فقط منتظراً. كم الساعة؟

ـ لا أعلم، الوقت متأخر.

ـ هل فعلتها؟

كان جاسبر غوين ممسكاً بالورقات التسع في يده. وضعها على الفراش.

قال: طالت مني بعض الشيء. عندما يكون المرء متعجلاً ينتج كل شيء أطول من المعتاد، كما تعلم.

كانا يتحدثان بصوت منخفض، وكانا يبدوان كأنهما ولدان على وشك سرقة شيء ما.

أخذ توم الأوراق في يده، وألقى عليها نظرة. ربما قرأ السطور الأولى. كان قد رفع رأسه قليلاً عن الوسادة، وكان يبدو عليه أنه يفعل ذلك بصعوبة شديدة جدّاً، ولكن في عينيه كان هناك شيء يقظ لم يره أحد من قبل قط، في ذلك المستشفى. ترك رأسه ليسقط مرة أخرى على الوسادة ومد يده بالأوراق لجاسبر غوين.

ـ حسنٌ، اقرأ.

ـ أنا؟

ـ هل يجب أن أستدعي ممرضة؟

كان جاسبر يتخيل شيئاً آخر مختلفاً، مثلاً أن يقرأ توم كل شيء وهو في طريقه إلى منزله ليغتسل أخيراً. كان لديه دائماً ذلك التأخير في الاعتراف بالواقع العاري للأشياء.

أخذ الأوراق في يده. كان يكره قراءة ما كتبه بصوت مرتفع، أن يقرأه على الآخرين؛ كان يبدو له دائماً تصرفاً بلا أي تحفظ. ولكن هناك بدأ في فعله، وهو يحاول أن يؤدّيه جيداً، بالبطء الضروري، والحرص. بدا له بعض العبارات غير دقيق، ولكن أجبر نفسه على

أن يقرأ كل شيء تماماً كما هو مكتوب. من حين لآخر كان توم يضحك. في إحدى المرات أشار له ليتوقف، ثم أفهمه أنه في إمكانه أن يستأنف. قرأ جاسبر غوين الصفحة الأخيرة ببطء أكثر، وفي الحقيقة، بدت له بلا عيب.

أخذ الأوراق، في النهاية، ونظمها، وثناها اثنين، ووضعها له على الفراش.

كانت الآلات مستمرة في إرسال رسائلها الغامضة، بإصرار عسكري.

قال توم: تعالَ هنا.

انحنى جاسبر غوين عليه. الآن كانا قريبين جداً. أخرج توم ذراعه من أسفل الأغطية ووضع يده على رأس صديقه، على عنقه، ثم ضمه إليه ـ ووضع رأس صديقه على كتفه وجعله يمكث هناك. كان يحرك أصابعه بصعوبة، كأنه يرغب في أن يتأكد من شيء.

قال: كنت متأكداً.

وضغط قليلاً بأصابعه على عنق صديقه.

ذهب جاسبر غوين عندما استغرق صديقه في النوم. كانت يده موضوعه على أوراق البورتريه، وبدت يده لجاسبر غوين كأنها يد طفل.

٥١.

كانت ريبيكا في المكتب عندما وصلها الخبر بأن توم لم ينجُ. نهضت ودون حتى أن تجمع أشياءها خرجت إلى الطريق. سارت مسرعة، بشكل لم تعهده من قبل، واثقة أي الطرق ستتبعها وغير

عابئة بأي شيء آخر حولها. وصلت إلى منزل جاسبر غوين والتصقت بجرس الباب. كانت ثابتة في رغبتها أن يُفتح لها ذلك الباب، حتى فُتح الباب في نهاية الأمر. لم تقل ريبيكا أي شيء، فقط ألقت بنفسها بين ذراعي جاسبر غوين، كانت قد قررت أنه هو المكان الوحيد في العالم المناسب لأن تبكي فيه دون أن تتوقف لساعات.

وكما يحدث عادةً، أخذا يتذكران، أنه عندما يموت شخص ما، يكون المتوقع أن يعيش الآخرون لأجله أيضاً، ولا يوجد شيء آخر مناسب أكثر من ذلك يمكن عمله.

٥٢.

وهكذا البورتريه الرابع نفذه جاسبر غوين للصديق الوحيد الذي كان له، قبل أن يموت ببضع ساعات.

ثم كان من الصعب البدء من جديد، بسبب أسباب كثيرة متوقعة، ولكن أيضاً بسبب الشعور المباغت بأن عمل تلك البورتريهات كانت طريقة أيضاً لتحدي شخص لم يعد له وجود، وربما من خلاله، كان هو مقتنعاً بأنه يتحدى كل عالم الكتب التي كان يرغب في أن يهرب منها. الآن لم يعد لديه أحد يجب عليه إقناعه سوى نفسه، وكان التكتم الذي كان يتخيله دائماً لمهنته كناسخ قد أصبح نوعاً من المعركة الخاصة دون، تقريباً، أي شهود. استغرقه الأمر بعض الوقت بأن هكذا كان الأمر، وأن عليه العثور على وضوح رغبة ضرورية. كان لا بد أن يعود للوراء ويتذكر ذلك النقاء الذي كان يبحث عنه، والتنقية التي كان يتمنى أن تحدث في قلب موهبته. فعل ذلك بهدوء، تاركاً أن تعاوده الفرحة التي كان يعرفها عن الرغبة. ثم، بالتدريج، عاد ليعمل مرة أخرى.

كان البورتريه الخامس لا بد له أن يفعله للفتى الذي كان يرسمه، ولم يعجبه الأمر على الإطلاق لأن ذلك كان يعني البداية من جديد، وكان شيئاً مُقدراً له الفشل. البورترية السادس قام به لرسام يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً بجسد غريب جدّاً، جسد عصفور، وكان وجهه لا يُنسى، كأنه منحوت في الخشب. السابع كان لشابين ثريين جدّاً تزوجا للتو وكانا قد أصرا على أن يقفا معاً في البورتريه. الثامن كان لطبيب يبحر لمدة ستة أشهر على المراكب التجارية، يدور حول العالم. التاسع لامرأة كانت ترغب في نسيان كل شيء، فيما عدا نفسها وأربع قصائد شعرية لفيرلين بالفرنسية. العاشر لحائك كان قد فصَّل ملابس للملكة، ولكنه لا يفتخر بهذا كثيراً. الحادي عشر، لصبية، وكان ذلك هو الخطأ.

ريبيكا، التي كانت تختار المُرشحين في محاولة لحماية جاسبر غوين من الأشخاص غير المناسبين، لم تكُن في الحقيقة قد قابلتها قط. ولكن كان هناك سبب: لقد تقدم إليها الأب، الذي لم يكُن أي شخص ولكن مستر تراولي، تاجر الآثار المعتزل، الرجل الأول في العالم الذي قبل أن يلقي بأمواله ليكتب له جاسبر غوين بورتريهاً. كانت الصبية هي ابنته الأصغر، كان اسمها أودري. بالأدب والتحضر اللذين تتذكر ريبيكا أنها قدرتهما عندما عرفته، شرح لها مستر تراولي أن ابنته فتاة صعبة، وكان هو مقتنعاً أن خبرة فريدة مثل تلك التي قضاها هو في استوديو جاسبر غوين ستساعدها على أن تعثر على هدنة ـ هذا ما قاله بالتحديد ـ فيها تستعيد بعضاً من السعادة. أضاف أيضاً أن أي شيء سيكتبه جاسبر غوين في البورتريه الخاص بها سيكون بالنسبة إلى ابنته ملمحاً أكثر وضوحاً من انعكاسها في المرآة وأكثر إقناعاً من أي تعليم.

تحدثت ريبيكا مع جاسبر غوين ومعاً قررا أنه شيء يمكن عمله. كان عمر الفتاة تسعة عشر عاماً. دخلت الاستوديو يوم الاثنين في شهر مايو. كانت قد مرت ستة عشر شهراً عندما فعل أبوها الشيء نفسه.

٥٣.

كانت عارية كأن الأمر يتعلق بتحدٍ ـ كان جسدها شاباً جدّاً، سلاحاً. كانت تتحدث كثيراً، وعلى الرغم من أن جاسبر غوين لم يشِر بأنه سيجيب عليها، واضطر أكثر من مرة أن يشرح لها أن الصمت لا غنى عنه في نجاح اللوحة، إلا أنها كانت في كل يوم تعود لتتحدث. لم تكُن تحكي شيئاً، لم تكُن تحاول أن تشرح شيئاً ما: كانت تتغنى بكراهية لا نهاية لها، وشر لا يمكن تمييزه. كانت متألقة في عمل هذا، ولكنها لم تكُن قط طفلة، كانت حيوانية بشكل مخيف. كانت تسب لأيام، وبطريقة أنيقة بوحشية، والديها. ثم انحرفت لوهلة نحو المدرسة والأصدقاء، ولكن كان واضحاً أنها كانت تفعل ذلك بطريقة عاجلة، غير محددة، لأن ما كانت تريد الوصول إليه كان شيئاً آخر. تخلى جاسبر غوين عن محاولات إسكاتها، واعتاد على أن يعد صوتها خاصية من خصائص جسدها، فقط أكثر حميمية من أجزاء أخرى، وبطريقة ما أكثر خطورة، كأنه سلاح. لم يكُن ينتبه إلى ما تقوله، ولكن تلك الوصلة الغنائية القاطعة استطاعت أن تبدو له أكثر حيوية وإغراءً إلى حد أن السحابة الصوتية لديفيد باربر أصبحت تبدو له بلا فائدة، بل مزعجة أيضاً. وفي اليوم الثاني عشر وصلت الفتاة حيث أرادت الوصول، أي إليه هو. بدأت تهاجمه، شفهيّاً، بانفعالات تبدّل بها فترات صمت، تكتفي فيها بأن تحدّق إليه، بحدة لا تُحتمل. أصبح جاسبر غوين غير قادر على

العمل، وفي التجول في فراغ ذهنه وصل إلى إدراك أن هناك شيئاً، في ذلك العنف، مرعباً من الانحلال والإغراء. ولم يكُن واثقاً بقدرته على أن يدافع عن نفسه ضدهما. قاوم لمدة يومين، ثم في اليوم الثالث لم يذهب إلى الاستوديو. فعل الشيء نفسه الأربعة أيام التي تلت ذلك. عاد في اليوم الخامس، وهو متأكد تقريباً أنه لن يجدها، ومضطرب بشكل غريب من فكرة أنه ربما يكون على حق. ولكنها كانت هناك. كانت تجلس في صمت طوال الوقت. وجدها جاسبر غوين، للمرة الأولى، ذات جمال خطير. عاد ليعمل من جديد باضطراب مزعج في رأسه.

في المساء، عندما عاد إلى المنزل، جاءته مكالمة من ريبيكا. حدث شيء غير مستحب. في إحدى الصحف الصفراء التي تصدر في وقت الظهيرة، ودون أي دليل ولكن مع استخدام النبرات غير الأنيقة المعتادة، كانوا يحكون قصة غريبة عن كاتب ينفِّذ بورتريهات في استوديو خلف ماريبلبون هاي ستريت. لم يذكروا شيئاً عن الاسم، ولكن كانت هناك إشارة إلى سعر البورتريهات (مبالغ فيه إلى حدٍّ ما) وذكر لتفاصيل كثيرة عن الاستوديو. كانت هناك فقرة، خبيثة، عن عُري الموديل وفقرة أخرى يذكرون فيها وجود أنواع من البخور والأضواء الخافتة، وموسيقى النيو إيج. وتبعاً لتلك الصحيفة الصفراء إن الرغبة في عمل تلك البورتريهات بتلك الطريقة، أصبح بالفعل، لدى مجتمع لندني معين، موضة اللحظة.

طوال الوقت كان جاسبر غوين يخشى شيئاً من هذا القبيل. ولكن مع مرور الوقت فهم هو وريبيكا أن الطريقة التي يعمل بها في ذلك الاستوديو تدفع الناس إلى أن يصبحوا غيورين جدّاً على البورتريه الخاص بهم وبطريقة بديهية يميلون إلى عدم تلويث جمال تلك الخبرة بشيء يبعدهم عن الاحتفاظ بها كذكرى خاصة. تحدثا بعض

الشيء، ولكن من خلال استعراض كل من كانوا في الاستوديو لم ينجحا في العثور على واحد منهم يمكنه، بشكل واقعي، أن يخاطر ويتصل بصحيفة صفراء ويصنع كل تلك الضوضاء. كان شيئاً حتمياً في النهاية التفكير في الفتاة. لم يكُن جاسبر غوين قد قص أي شيء عما كان يحدث معها في الاستوديو، ولكن ريبيكا كانت تعرف الآن كيف يمكنها قراءة كل تفصيلة صغيرة ولم يغب عنها أن تلاحظ أن شيئاً ما لا يسير كالمعتاد. حاولت أن تطرح الأسئلة، واكتفى جاسبر غوين بأن يشير إلى أن لتلك الفتاة موهبة خاصة جدّاً في الشر. ولم يرغب في أن يضيف أي شيء آخر. وقررا أن على ريبيكا أن تتوخى الحذر في متابعة تأثير الإشاعة على وسائل الإعلام، وأنهما في اللحظة الحالية ليس أمامهما سوى العودة إلى العمل.

عاد جاسبر غوين إلى الاستوديو، في اليوم التالي، وكان لديه الانطباع الغريب بأنه مثل حيوان أليف يدخل إلى القفص. وجد الفتاة جالسة على الأرض، في الركن الذي عادةً يستكين في هو. وكانت تكتب شيئاً ما على الأوراق بلون الكريمة في مفكرته.

٥٤.

لم يظهر المزيد، عن تلك القصة، على صفحات أخرى، وبحثت ريبيكا عن جاسبر غوين لتطمئنه، ولكنها لم تستطع العثور عليه. عاد هو للظهور، ولكن بعد بضعة أيام، وكان قليل الكلام، قال إن كل شيء على ما يرام. وكانت ريبيكا تعرفه بالدرجة الكافية لكي لا تُصر. وكفت عن البحث عنه. كانت تقطع المقالات، القليلة، التي كانت تعيد نشر الخبر. ويمكن القول إن الأمر سار على ما يرام، إجمالاً. كانت تعمل في مكتب صغير جدّاً كان جاسبر غوين

قد عثر لها عليه، في مكان محبب، ليس بعيداً عن منزلها. قابلت ثلاثة مرشحين (كان الثلاثة قد رأوا الجريدة الصفراء) دون أن يقنعها أي منهم في الحقيقة. قضت أسبوعاً، وانتظرت أن يحدث ذلك الذي عادةً يحدث عندما تقرر الرغبة التي لا يمكن إثناؤها، لكاترينا داي ميديتشي، بأن الوقت قد انتهى. بعد ذلك ببضعة أيام لا بد أن يسلم لها جاسبر غوين نسخة من البورتريه، عندئذٍ كانت هي تستدعي العميل، الذي سيأتي ليستلمه، يستكمل دفع الحساب، ويعيد مفتاح الاستوديو. كان كل شيء منظماً ومكرراً، وكان هذا يعجبها. إلا أنه في تلك المرة تأخر جاسبر غوين في الظهور، وفي المقابل ظهر أمامها، في صباح أحد الأيام مستر ترولي. جاء لكي يخبرها، أنه حسب ما قصته ابنته، فإن مصابيح كاترينا داي ميدتشي كانت قد انطفأت، وفعلت ذلك بشكل أنيق، ولكن في الحقيقة أنه عندما حدث هذا كان جاسبر غوين قد توقف عن الذهاب إلى الاستوديو قبلها بتسعة أيام. لم تتوقف ابنته عن الذهاب إلى هناك كل يوم في الظهيرة، ولكنها لم تره بعد ذلك قط.

الآن كان مستر تراولي يتساءل إذا كان عليهم عمل شيء محدد، أم فقط الانتظار. لم يكُن قلقاً، ولكنه فضَّل أن يأتي بنفسه ليتأكد أن كل شيء على ما يرام.

ـ هل سيادتك متأكد أن مستر غوين لم يظهر لمدة تسعة أيام؟ سألته ريبيكا.

ـ ابنتي تقول هذا.

نظرت إليه ريبيكا نظرة استفهامية.

ـ أجل، إنني مدرك. قال هو. ولكن في هذه الحالة أميل إلى أن أصدقها.

قالت ريبيكا إنها ستتأكد من هذا الأمر، وإنها ستتصل به في أقرب فرصة. لم تكُن مطمئنة، ولكنها لم تجعله يرى هذا.

قبل أن ينصرف، عثر مستر تراولي على طريقة ليسأل إذا كانت ريبيكا لديها أي فكرة عما يمكن أن يكون قد حدث هناك في الاستوديو. كان ذلك الذي يرغب أن يسأل عنه في واقع الأمر إذا كانت ابنته قد تصرفت بشكل محترم.

قالت ريبيكا: لا أعرف. لا يحكي مستر غوين كثيراً على ما يحدث هناك بالداخل، هذا هو أسلوبه.

ـ أفهم.

ـ ذلك الذي استطعت استنتاجه أن ابنة سيادتك لم تكُن موضوعاً سهلاً، إذا أمكن القول.

ـ أجل، هي كذلك، قال السيد تراولي.

وتوقف ليضيف:

ـ أحياناً يمكنها أن تكون بشعة إلى أقصى درجة أو جذابة بطريقة مبالغ فيها.

فكرت ريبيكا أنه كان سيعجبها لو كانت فتاة يمكن أن يُقال عنها شيء من هذا القبيل.

ـ سأخبرك يا سيد تراولي، أنا متأكدة أن كل شيء سيكون على ما يرام.

قال مستر تراولي إنه لا يشك في هذا.

في اليوم التالي ظهر على صفحات «الجارديان» تحقيق موسع عن موضوع اللوحات. كان أكثر تحديداً من ذلك الذي تناولته الصحيفة

الصفراء، بل وذُكر أيضاً فيه اسم جاسبر غوين، وكان هناك مقال صغير آخر خُصص له، يتحدثون فيه عن تاريخه المهني.

سارعت ريبيكا بالبحث عن جاسبر غوين. لم تعثر عليه في المنزل، ولم تفدها كثيراً جولتها على مغسلات الحي. كان يبدو كأنه اختفى.

٥٥.

لم يحدث شيء لمدة خمسة أيام، ثم تلقت ريبيكا من جاسبر غوين مظروفاً سميكاً، يحتوي على بورتريه الفتاة، مغلفاً بالعناية المعتادة نفسها، وورقة بها بضعة أسطر. كان يقول فيها إنه يجد من المستحيل إمكانية ظهوره، وإنه يعتمد على أن ريبيكا ستهتم بكل شيء في أثناء هذا، وإنه لا بد من تأجيل عمل البورتريه القادم: فهو غير واثق بأنه يستطيع العودة إلى العمل قبل بضعة أشهر. كان يشكرها ويحييها بحضن كبير، ولم تكُن هناك أي إشارة عن مقال «الجارديان».

كان على ريبيكا، طوال اليوم، أن ترفض بأدب المكالمات الكثيرة، من كل مكان، التي كان تصلها لتعرف أكثر عن قصة جاسبر غوين. لم يكُن يعجبها أنها تُركت وحدها في لحظة دقيقة مثل هذه، ولكنها من جهة أخرى كانت تعرف جاسبر غوين معرفة كافية لتتعرف على طريقة تصرف معينة سيكون لا فائدة من محاولة إصلاحها. فعلت ذلك الذي يجب عمله، بأفضل ما تستطيع، وقبل المساء اتصلت بمستر تراولي لتخبره أن البورتريه جاهز. بمجرد أن أغلقت الخط، أخذت بورتريه الفتاة وفتحته. كان شيئاً لم تفعله قط. كانت قد فرضت على نفسها نظاماً بأن تسلم البورتريهات دون حتى أن تلقي عليها نظرة. كانت ستحين لحظة ما مناسبة لتقرأها جميعاً،

كانت هكذا تفكر دائماً، ولكن ذلك المساء كان كل شيء مختلفاً. كان هناك في الجو شيء يشبه الانعتاق من سحر ما، والتوقف عن التصرفات المعتادة بدا لها شيئاً منطقياً، ربما واجباً أيضاً. عندئذٍ فتحت بورتريه الفتاة وأخذت تقرؤه.

كان من أربع صفحات. توقفت هي بعد الصفحة الأولى، ثم وضعت الأوراق في مكانها وأغلقت الملف.

٥٦.

وصلت الفتاة بمفردها في الصباح. جلست أمام ريبيكا. كان شعرها أشقر وطويلاً، مستقيماً ورفيعاً، وكانت تتركه ليسقط على جانبي وجهها. فقط للحظات، وبحركة من رأسها، كانت تظهر بالكامل الملامح الحادة، ولكن المسيطرة لعينين ساحرتين قاتمتين. كانت نحيفة، وتقدم جسدها دون أن تفلت منها أي علامات عصبية: كانت تبدو وقد اختارت نوعاً معيناً من السكون كقاعدة لجلستها. كانت ترتدي سترة مفتوحة فوق فانلة بنفسجية يمكن منها رؤية نهديها الصغيرين الجميلين. لاحظت ريبيكا يديها الشاحبتين المملوءتين بجروح صغيرة.

قالت وهي تقدم لها الملف: صورتك.

تركته الفتاة على المائدة وسألتها: هل أنتِ ريبيكا؟

ـ أجل.

ـ يتحدث جاسبر غوين كثيراً عنكِ.

ـ من الصعب تصديق هذا. ليس مستر غوين من النوع الذي يتحدث عن أي شيء كثيراً.

ـ أجل، ولكنه يفعل ذلك عنكِ.

أشارت ريبيكا إشارة عابرة وابتسمت.

قالت: حسنٌ.

ثم وضعت أمام الفتاة ورقة لتوقعها. وكانت لتنهي الحساب قد اتفقت بالفعل مع والدها.

وقّعت الفتاة دون أن تقرأ. أعادت لها القلم. أشارت تجاه الملف، وسألت:

ـ هل قرأتِه؟

ـ لا، كذبت ريبيكا. لا أفعل ذلك أبداً.

ـ يا لكِ من غبية.

ـ أفندم؟

ـ كنت أنا سأفعل ذلك.

ـ أتعرفين، إنني كبيرة بما يكفي لأقرر بنفسي ما هو الأفضل عمله وما لا يجب.

ـ أجل، أنتِ كبيرة. أنتِ عجوز.

ـ ربما. الآن لدي كثير من الأشياء التي يجب عملها، بعد إذنك.

ـ جاسبر غوين يقول إنكِ امرأة تعيسة جدّاً.

عندئذٍ نظرت لها ريبيكا للمرة الأولى بلا حذر. رأت أن لها طريقة كريهة تبدو بها ساحرة.

قالت: حتى مستر غوين يخطئ من حين لآخر.

قامت الفتاة بتلك الحركة برأسها التي بها تحرر وجهها للحظة.

سألتها: هل تحبينه؟

نظرت إليها ريبيكا ولم تجب.

ـ لا، لم يكُن هذا هو السؤال الذي أردت طرحه، أصلحت الفتاة. أقصد هل مارستِ الحب معه؟ سألتها.

فكرت ريبيكا أن تنهض وأن تدعو الفتاة للخروج، ولكن من الواضح أنه الشيء الوحيد الذي يمكن عمله، ولكنها أيضاً شعرت أن هناك طريقة ما للدخول في كل الأشياء الغريبة التي تحدث، وهناك أمامها كانت الطريقة الوحيدة الممكنة لعمل هذا، على الرغم من قسوتها.

قالت: لا. لم أمارس قط الحب معه.

قالت الصبية: أنا فعلت هذا. هل يهمك معرفة كيف يفعل هذا؟

ـ لست متأكدة.

ـ بعنف، ولكن بعد ذلك فجأة بعذوبة. يحب أن يلمس نفسه. لا يتحدث قط، لا يغلق قط عينيه، ويصبح جميلاً جدّاً عندما يصل.

قالت هذا دون أن تبعد نظرها عن عيني ريبيكا.

سألتها: هل تريدين أن تقرأي معي البورتريه؟

أومأت ريبيكا بلا برأسها.

ـ لا أعتقد أنني أرغب في معرفة المزيد عنكِ أيتها الصبية.

ـ أنتِ لا تعرفين أي شيء عني.

ـ وهذا ممتاز.

بدت الفتاة لوهلة مأخوذة بشيء ما رأته على المائدة، ثم رفعت نظرها نحو ريبيكا.

قالت: فعلنا ذلك لمدة يومين، دون تقريباً أن ننام. هناك في الاستوديو. ثم ذهب هو ولم يعد قط. جبان.

ـ إذا لم يكُن لديكِ سم آخر ترغبين في بصقه، فإن حوارنا قد انتهى.

ـ أجل، شيء واحد آخر.

ـ تعجلي.

ـ هل تقومين لي بخدمة؟

نظرت إليها ريبيكا بشرود. قامت الفتاة مرة أخرى بتلك الحركة التي تكشف للحظة عن وجهها.

ـ عندما ترينه قولي له إنه يؤسفني ذلك الذي حدث على صفحات الجرائد، لم أكُن أفكر أن كل هذه الضوضاء سوف تحدث.

ـ إذا كنتِ قد أردتِ أذيته فقد نجحتِ.

ـ لا، لم أكُن أرغب في ذلك. كان شيئاً أخر.

ـ ماذا؟

ـ لا أعرف... كنت أرغب في أن *ألمسه*، ولكنني لا أعتقد أنكِ يمكنكِ فهمي.

فكرت ريبيكا بضيق بأنها كان يمكنها أن تفهم جيداً جدّاً، وفكرت أيضاً في عقاب أولئك، الكثيرين، الذين لا يستطيعون اللمس دون أن يتسببوا في الألم، وبعفوية بحثت بعينيها عن تلك اليدين والجروح الصغيرة بهما. شعرت بظل شفقة بعيدة، وعرفت على الفور ما الذي أخضع جاسبر غوين، في ذلك الاستوديو، لتلك الفتاة.

قالت: المفتاح.

بحثت الصبية في الحقيبة ووضعت المفتاح فوق المكتب. مكثت لوهلة تنظر إليه.

قالت: لا أريد ذلك البورتريه، ألقي به.

ثم انصرفت وتركت الباب مفتوحاً، كانت تسير منحنية قليلاً، كأنها لا بد وأن تدخل في مساحة مستقيمة، وتفعل ذلك لتهرب من أي شي تكونه.

٥٧.

احتاجت ريبيكا لبعض الوقت لتعيد تحريك أفكارها. تركت خلفها المهام التي كان لا بد من إنجازها، وألغت جميع المواعيد، تركت الصحف التي كانت قد ابتاعتها على المكتب، دون أن تفتحها. كانت تشعر بالضيق عند رؤية يديها ترتعشان، وكان من الصعب حتى أن تفهم إذا كان ذلك بسبب الغضب أو شكل ما من أشكال الفزع. دق جرس الهاتف، ولم تجب. أخذت أشياءها وخرجت.

وفي الطريق إلى المنزل، جلست في مكان هادئ على درجات كنيسة، على حافة حديقة صغيرة، وأجبرت نفسها على تذكر كلمات تلك الفتاة. كانت تحاول أن تفهم ماذا حطمت. أشياء كثيرة، البعض منها كانت تعرف أنه رقيق ولكنه ثابت، وقبل أن تفكر في نفسها فكرت في جاسبر غوين، مثل أولئك الذين بمجرد أن ينهضوا من سقطة، يتأكدون من أن نظاراتهم أو الساعة، الأشياء الأكثر هشاشة، لم تتحطم. كان من الصعب فهم كم جرحته تلك الفتاة. بالتأكيد تحطم اجراء ما كان جاسبر غوين قد اختاره كقاعدة أساسية، حتى تلك اللحظة، لعمله الغريب. ولكن ربما كانت تلك العناية الفائقة بأن يضع حدوداً وموانع تخفي خلفها الرغبة الدفينة في أن يصل أبعد بكثير من كل قاعدة، ولو لمرة واحدة، وبأي ثمن، كأن الهدف هو الوصول إلى نهاية مسيرة ما. إذًا من الصعب تحديد إذا كانت تلك

الفتاة بالنسبة إليه ضربة مميتة أم الهدف الذي كانت تسعى كل لوحاته السابقة للوصول إليه. من يدري. من المؤكد أن تلك الأيام التسعة التي قضاها دون أن يضع قدمه في الاستوديو تدفع إلى التفكير في رجل مفزوع أكثر من رجل بلغ هدفه، وماذا عن استمراره في الاختفاء، بهدوء ولكن بإصرار. إن الحيوانات المجروحة هي التي تتحرك هكذا. فكرت في الاستوديو، في مصابيح كاترينا داي ميديتشي الثمانية عشر، في موسيقى ديفيد باربر. يا للخسارة، قالت لنفسها. يا للخسارة الفادحة أن ينتهي كل شيء.

عادت تجاه منزلها، وهي تسير ببطء شديد، وعندئذٍ فقط بدأت تفكر في نفسها، وأن تفحص جروحها هي. على الرغم من أنها تشعر بالمرارة في الاعتراف بذلك، فإن تلك الفتاة عرّفتها شيئاً ما يهينها، وكانت له علاقة بالشجاعة، أو بالجرأة، مَن يدري؟ حاولت أن تتذكر اللحظات التي كانت هي قريبة بالفعل من جاسبر غوين، قريبة بشكل فاضح، وانتهى بها الأمر بأن تساءلت عما أخطأت فيه في تلك اللحظات، أو ما الذي لم تكُن تفهمه. عادت بالذاكرة إلى ظلام الاستوديو في تلك الليلة الأخيرة، وتذكرت اللا شيء الذي ظل بينهما، وهي لا تصدق أنها لم تتمكن من تجاوزه. ولكن الأكثر من ذلك عادت لتفكر في ذلك الصباح الذي مات فيه توم، في الاسراع بالذهاب لجاسبر غوين وفي كل ما تبع ذلك. تذكرت الفزع الذي أصابهما هما الاثنين، وإلى تلك الرغبة بأن يغلقا على نفسيهما هناك بالداخل، معاً، والتي كانت أكبر من أي شيء آخر. كانت تتذكر تصرفاتها في المطبخ، قدميها العاريتين، الهاتف الذي كان يدق بينما هما لم يتوقفا عن الكلام بصوت منخفض. فكرت في الكحول الذي شرباه، الأسطوانات القديمة، أغلفة الكتب، الاضطراب في الحمام، وكيف كان سهلاً الاستلقاء بجواره، والنوم، ثم الفجر الصعب، والنظرة الفزعة في عين جاسبر غوين، وهي التي فهمت وانصرفت.

كم كان التصرف الصلف لهذا الفتاة أكثر تحديداً.

يا له من درس كريه.

نظرت لنفسها وتساءلت إذا كان كل شيء يمكن تفسيره ببساطة بذلك الجسد، جسدها، غير المناسب والخاطيء، ولكن لم تكُن هناك إجابة، لم تكُن هناك سوى أحزان تجنبت مواجهتها منذ فترة.

في المنزل، بعد ذلك، رأت نفسها في المرآة جميلة ومليئة بالحيوية.

عندئذٍ، فعلت، لأيام، التصرف الوحيد الذي بدا لها مناسباً، هو أن تنتظر. تابعت ببرود تضاعف التقارير الصحفية التي تتناول الحالة الغريبة لجاسبر غوين، واكتفت بأن أرشفتها بالترتيب الزمني. كانت تجيب على الهاتف، وتدون بإتقان كل الطلبات مؤكدة أنها عن قريب ستفيدهم أكثر. لم تكُن تشعر بالخوف، كانت تعرف أن عليها فقط أن تنتظر. فعلت ذلك لمدة أحد عشر يوماً، ثم في صباح أحد الأيام، وصل لها على المكتب طرد كبير، مصحوب بخطاب وكتاب.

في الطرد كانت توجد كل البورتريهات، كل منها في ملفه. في الخطاب كان جاسبر غوين يوضح أنها النسخ التي طبعها لنفسه، وكان يرجوها أن تحتفظ بها في مكان أمين، وألا تنشرها بأي طريقة. أضاف أيضاً قائمة دقيقة بكل الأشياء الواجب عملها: إعادة الاستوديو إلى جون سيبتيموس هيل، التخلص من الأثاث والديكور، إخلاء المكتب، وإلغاء البريد الإلكتروني الذي عملا من خلاله، ألا تجعل الصحفيين الذين حاولوا الاتصال بها يصلون إليها، وأكد أنه قد اهتم شخصياً بتسديد كل الحسابات المعلقة، وكان يؤكد على ريبيكا أن كل مستحقاتها ستصل إليها في أقرب فرصة، بالإضافة إلى مكافأة كبيرة لنهاية الخدمة. كان متأكداً أنها لن تقابل أي مشكلات.

كان يشكرها من قلبه، ومرة أخرى يؤكد بقوله إنه لم يكُن يتمنى أن تكون لديه مساعدة أكثر دقة، وتحفظاً وممتعة. كان مدركاً أن وداعاً أكثر دفئاً من هذا كان سيكون أفضل بكل المقاييس، ولكنه كان لا بد أن يعترف، بندم، أنه لم ينجح في أن يفعل أفضل من هذا.

كان باقي الخطاب مكتوباً بخط اليد، وجاء فيه ما يلي:

ربما لا بد أن أشرح لكِ أن البعد عن تلك الفتاة كان معضلة لا حل لها، ولكن لم أستطع عمل هذا دون أن أبدو سخيفاً أو ربما أيضاً دون أن أجرحها. لا أهتم كثيراً بالشيء الأول لكن الأمر الآخر خلق لديَّ نوعاً من الإحباط اللا متناهي. أريد ببساطة أن تصدقي أنه لم يكُن أمامي تصرف آخر.

لا تقلقي عليّ، لم يزعجني ذلك الذي حدث ولديَّ بالفعل فكرة محددة عما يجب أن أفعله حالياً.

أتمنى لكِ كل سعادة، فأنتِ تستحقينها

الممتن لكِ إلى الأبد

جاسبر غوين، الناسخ

كانت هناك أيضاً ملحوظة، بعد التوقيع، من بضعة أسطر. كان يقول فيها إنه أرسل الكتاب الأخير الذي خرج من الصناديق لكلاريسا رود، الذي نُشر للتو. كان يتذكر جيداً كيف أنه في ذلك اليوم، في المتنزه، عندما أحضر لها البورتريه الخاص بها، كانت لديها رواية لرود، في يدها، وكانت تتحدث عنها بحماس شديد، ولهذا خطر بذهنه أن هذا يمكن أن يكون طريقة جيدة لغلق الدائرة بأن يقدم لها ذلك الكتاب في هذا الظرف، وكان يتمنى لها أن تشعر بالمتعة لقراءته.

لا شيء آخر.

فكرت ريبيكا: ولكن هل يمكن أن يكون هناك بشر مثل هذا؟

أخذت الكتاب، أدارته بعض الشيء بين يديها، ثم ألقت به إلى الجدار ـ تصرف ستتذكره بعد ذلك ببضعة أعوام.

خطر ببالها أن تبحث فوق الطرد، وعثرت فقط على ختم بريد لندني. أين ذهب جاسبر غوين، لم يسمح لها كما هو واضح أن تعرف ذلك. بعيداً، هذا ما شعرت به بيقين مطلق. كان كل شيء قد انتهى، ولكن لم يحدث بتلك الروعة التي عادةً ما تغرب بها الأشياء.

نهضت، وضعت خطاب جاسبر غوين في الأجندة، وقررت للمرة الأخيرة أن تفعل ما كان يطلبه منها. ليس بدافع الواجب ـ ولكن كشكل من أشكال الدقة الحزينة. أخذت معها، قبل أن تخرج، البورتريهات، وقررت أن عدم قراءتها سيكون أحد متع حياتها. وصلت إلى المنزل ووضعتها في عمق إحدى الخزانات أسفل كنزات قديمة، وكان هذا هو التصرف الأخير الذي شعرت نحوه ببعض الندم، أن تعرف أن لا أحد سيعرف قط.

احتاجت حوالي عشرة أيام لتنظم كل شيء. ولمن كان يطلب منها أي تفسير كانت تجيب إجابات غامضة. عندما قال لها جون سيبتيموس هيل أن تنقل إلى جاسبر غوين سلاماته واحترامه، أوضحت أنه ليس في إمكانها عمل هذا.

ـ لا يمكنكِ؟

ـ لا للأسف.

ـ ألا تتوقعين أن تقابليه خلال فترة زمنية ما؟

قالت ريبيكا: لا أتوقع أن أراه على الإطلاق.

سمح جون سيبتيموس هيل لنفسه بابتسامة متشككة غامضة، رأتها ريبيكا غير مناسبة للموقف.

٥٨.

في الأعوام التالية، على ما يبدو، لم تصل لأحد أي أخبار عن جاسبر غوين. سرعان ما انحسرت كل التكهنات حول جنونه الغريب الخاص بالبورتريهات عن صفحات الجرائد وبدأ اسمه في الظهور بندرة أكثر في الأخبار الأدبية. حدث أن ذُكر في خرائط عابرة عن الأدب الانجليزي الحديث، وحوالي مرتين خُصص بعض الأسطر عنه فيما يتعلق بكتب أخرى تبدو كأنها تستعير منه بعض أساليبه الأدبية. إحدى رواياته «الشقيقتان»، وُضعت في قائمة: *مئة كتاب لا بد أن تقرأها قبل أن تموت*، التي حررتها إحدى المجلات الأدبية المهمة. حاول محرره الإنجليزي، وبعض المحررين الأجانب الاتصال به، ولكن في الماضي كان كل شيء يجري من خلال توم، ولكن الآن، عندما أغلقت مؤسسته، لم تعد هناك طريقة للتحدث مع ذلك الرجل. انتشر الشعور بأنه سيظهر إن آجلاً أم عاجلاً، وربما من خلال كتاب جديد، ولكن البعض كان يفكر في أنه بالفعل قد توقف عن الكتابة.

بالنسبة إلى ريبيكا، خلال أربعة أعوام أعادت بناء حياتها، واختارت أن تبدأ من جديد. عثرت على عمل لا علاقة له بالكتب، تركت ذلك الشاب الأحمق، وذهبت لتعيش في ضواحي لندن. في أحد الأيام تعرفت على رجل متزوج لديه طريقة غاية في الجمال في أن يتسبب في الفوضى لأي شيء يلمسه. كان يُدعى روبرت، وفي نهاية الأمر أغرما ببعضهما بشدة، وفي أحد الأيام سألها الرجل إذا

حدث أن ترك عائلته هل بإمكانه أن يجرب تكوين عائلة أخرى معها. بدت الفكرة رائعة لريبيكا. وفي عمر الثانية والثلاثين أصبحت أماً لطفلة أطلقا عليها اسم إيما، وأخذت تعمل أقل وتزيد في الوزن أكثر، ولم يتسبب لها أي من الأمرين في أي شكل من أشكال الندم. في لحظات شديدة الندرة كان يحدث لها أن تعيد التفكير في جاسبر غوين، ولكن دون أي مشاعر. كانت ذكريات خفيفة، كأنها كروت بوستال تُرسل إليها من حياة سابقة.

إلا أنه في أحد الأيام، وبينما كانت تدفع عربة إيما بين ممرات مكتبة لندنية ضخمة، عثرت على عرض خاص على كتب الجيب وكان في قمة القائمة كتاب لكلاريسا رود. في البداية لم تنتبه كثيراً لعنوان الكتاب، ولكن لاحظت ببساطة أنها لم تقرأه قط. فقط أمام الخزانة أدركت، في الواقع، أنه كان الكتاب الذي منذ أربعة أعوام أهداه لها جاسبر غوين، في اليوم الذي انتهى فيه كل شيء، وتذكرت ما فعلته به. ابتسمت ودفعت.

بدأت القراءة وهي في مترو الأنفاق، لأن إيما كانت نائمة في عربتها، وما زال أمامها بعض المحطات. كانت تستمتع بالفعل ونسيت كل من حولها، عندما فجأة تحجرت أمام صفحة ١٦. واصلت القراءة بعض الشيء وهي لا تصدق، ثم رفعت عينيها وبصوت مرتفع قالت:

ـ ولكنْ لننظر إلى ابن العاهرة هذا!

في الواقع ما كانت تقرؤه في كتاب رود كان هو نفسه البورتريه الخاص بها، تماماً ذلك البورتريه الذي كتبه جاسبر غوين لها منذ سنوات مضت.

التفتت ناحية الجالس بجوارها، وشعرت بواجب أن تشرح، وأكملت مرة أخرى بصوت مرتفع:

ـ لقد نقله، لقد نقله من رود، اللعنة!

لم يبدُ أن جارها استطاع أن يفهم أهمية الأمر، ولكن في الوقت نفسه، شيء ما بدأ يتحرك في رأس ريبيكا ـ كأنه شكل من أشكال الفهم المتأخر ـ وعادت هي لتنظر إلى الكتاب.

وفكرت: لحظة!

فحصت مرة أخرى تاريخ النسخة، واكتشفت أن هناك شيئاً ما لا يستقيم. لقد أعطاها جاسبر غوين البورتريه قبل ذلك التاريخ على الأقل بعام. كيف يمكنه أن ينسخ من كتاب لم يكُن قد صدر بعد؟

التفتت مرة أخرى تجاه جارها، ولكن كان من الواضح أنه لن يتمكن من مساعدتها.

ربما كان جاسبر غوين قد قرأه قبل أن يُطبع، فكرت. كان افتراضاً منطقياً. كانت تتذكر بإبهام أن ذلك الأمر الخاص بمخطوطات كلاريسا رود كان شيئاً معقداً، ولم يكُن في إمكان جاسبر غوين أن ينجح، بأي شكل، في أن يراها قبل أن تنتهي لدى الناشر. أخذت تنظر، ولكن، في تلك اللحظة بالتحديد، من بعيد، عادت إليها عبارة كان توم قد قالها لها، منذ فترة طويلة مضت. كان في ذلك اليوم الذي كان يشرح لها فيها أي نوع من الناس جاسبر غوين. كان قد حكى لها عن حكاية الابن الذي لم يعرفه قط، ولكنه كان قد قال لها أيضاً شيئاً آخر: إن هناك كتباً، على الأقل كتابين، كتبهما جاسبر غوين يدوران حول العالم، ولكن ليس باسمه.

اللعنة، فكرت.

إذًا هذا هو السبب الذي لأجله لا تنتهي نسخ الكتب الخاصة بتلك الكاتبة. لأنه هو من يكتبها.

كان ضرباً من الجنون، ولكن يمكن أيضاً أن تكون الحقيقة.

سيغير هذا كثيراً من الأشياء، قالت لنفسها. وبعفوية عادت لتفكر في ذلك اليوم الذي فيه انتهى كل شيء، ورأت نفسها وهي تلقي بذلك الكتاب الغبي عرض الحائط. ربما لم يكُن مجرد كتاب غبي، ولكنها كانت هدية قيمة؟ اجتهدت في أن تضع كل القطع معاً. مرت بذهنها لوهلة فكرة أنها استعادت شيئاً على قدر من الأهمية، شيئاً كان يحق لها منذ فترة من الزمن. كانت تحاول أن تفهم ما هو هذا الشيء بالتحديد، عندما أدركت أن المترو قد توقف في المحطة التي تريد النزول فيها.

ـ اللعنة!

نهضت ونزلت جرياً.

استغرقها الأمر لحظة لتدرك أنها نسيت شيئاً.

ـ إيما!

التفتت بينما الأبواب تُغلق. بدأت تضرب بكفَّي يديها على الزجاج، وتصرخ بشيء ما بينما القطار يتحرك ببطء بعيداً بالفعل.

توقف بعض الناس لينظروا إليها.

ـ ابنتي! صرخت ريبيكا. ما زالت ابنتي هناك بالداخل.

لم يكُن أمراً بسيطاً بعد ذلك استعادتها.

٥٩.

لم يبدُ لها شيئاً ضرورياً، بعد ذلك، أن تحكي كل القصة لروبرت، ولكن عندما حان وقت النوم، قالت له ريبيكا إنها لا بد أن تنتهي من قراءة شيء لأجل العمل ورجته أن يذهب هو للنوم، وإنها ستبقى هناك، وستأتي على الفور.

سألها: وإذا استيقظت إيما؟

- كالعادة. اخنقها بالوسادة.

- حسنٌ.

كان رجلاً ذا طابع محبب.

مكتبة
t.me/t_pdf

مستلقية على الأريكة، أخذت ريبيكا كتاب رود، وعادت لتقرأه من جديد من البداية، وقرأته حتى النهاية. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما وصلت إلى الصفحة الأخيرة. كانت القصة تدور في مدينة دانمركية من القرن التاسع عشر وكانت تحكي عن أب له خمسة أبناء. كانت قصة جميلة جدّاً. وبعد البداية بقليل كان هناك في الواقع البورتريه الذي كتبه جاسبر غوين لها، كأنه منسوج بالداخل، وبلا جدوى حاولت ريبيكا في باقي الكتاب، البحث عن شيء تستخلص منه أي آثار ذات معنى، ولكن بلا جدوى، ولم يبدُ لها العثور على صفحة واحدة يمكن أن تكون قد كُتبت من أجلها على وجه الخصوص. فقط ذلك الشيء الشبيه باللوحة، الموضوع في زاوية، بمهارة أكيدة.

كانت قد أغلقت منذ فترة قصة جاسبر غوين، والآن بدت لها محاولة فهم ماذا كانت تعني كل تلك القصة، لوهلة، جهداً لا ترغب في بذله. كان الوقت متأخراً، واليوم التالي لا بد أن تأخذ إيما إلى حماتها ثم تجري إلى العمل. فكرت في أنها ربما من الأفضل أن تترك كل شيء وتذهب إلى الفراش، ولكن بينما كانت تغلق الأنوار وتجد شيئاً ليس في مكانه، انتابها شعور غريب بأنها ليست هناك، وأنها تُكمل تفاصيل حياة شخص آخر. وبشيء من الاضطراب فهمت أنه في يوم واحد فقط، تقلصت بكل أناقة مسافة ما عملت لسنوات على الاحتفاظ بها، كأنها خيمة في مهب الريح. ومن بعيد لحق بها حنين كانت تعتقد أنها قضت عليه.

وهكذا، وبدلاً من أن تعود إلى الفراش، فعلت شيئاً لم تكُن تفكر قط في أن تفعله. فتحت الخزانة وأخرجت من أسفل كومة من الأغطية الشتوية ملفات البورتريهات. أعدت لنفسها كوباً من القهوة، وجلست على المائدة، وبدأت بفتح الملفات، بلا ترتيب محدد. وأخذت تقرأ هنا وهناك، دون منهج معين، كأنها تتجول في معرض للوحات. لم تكُن تفعل ذلك في محاولة لفهم شيء ما، أو لتعثر على إجابات. كانت تستمتع فقط بالألوان، بتلك الإضاءة الخاصة، باللمسات الداكنة وآثار خيال معين. كانت تفعل ذلك، لأن كل هذا كان بالنسبة إليها مكاناً ما، ولم تكُن ترغب في أن توجد في مكان سواه في تلك الليلة.

توقفت عندما بدأت تتسرب الأضواء الأولى للفجر. كانت عيناها تحرقانها. شعرت فجأة بتعب شديد، لا يمكن إبعاده. ذهبت لتدخل إلى الفراش، واستيقظ روبرت فقط ليسألها، دون حتى أن يدرك، إذا كان كل شيء على ما يرام.

ـ كل شيء بخير، نَم.

أمسكت به قليلاً، وهي تلف على أحد جنبيها، وراحت في النوم.

٦٠.

في اليوم التالي استيقظت ولم تكُن تفهم شيئاً. اتصلت بالمكتب لتقول لهم إن لديها حالة طارئة ولن تتمكن من الذهاب إلى العمل، ثم أخذت إيما إلى حماتها، كانت سيدة لطيفة، أسمن منها، لم تتوقف قط عن أن تشعر نحوها بالامتنان لأنها انتزعت ابنها من براثن من كانت تأكل فقط الخضراوات. قالت لها ريبيكا إنها ستعود بعد

الظهر وأضافت أنه إذا حدث وتأخرت ستخبرها. قبّلت إيما وعادت إلى المنزل.

في صمت الحجرات الفارغة أخذت في يدها مرة أخرى كتاب رود، وأجبرت نفسها على التفكير. كانت تكره الألغاز وكانت تعرف أنها لا تتحلى بالذكاء الكافي لتتسلى بحلها. لم تكُن حتى متأكدة تمام التأكد أنها تريد أن تفتح من جديد تلك القصة التي اعتقدت أنها ماتت ودُفنت، ولكن من المؤكد أنها ستُسر بأن تتأكد أن هذا الكتاب كان بالفعل هدية لها ـ لمسة المحبة التي افتقدتها في ذلك الوداع الذي حدث منذ عدة أعوام. وهكذا كما كانت تجذبها، بلا شك، فكرة أن تكتشف، هي بمفردها، إلى أين يمكن أن تصل، بالفعل، الغرابة اللا نهائية لجاسبر غوين.

مكثت تفكر لفترة طويلة.

ثم نهضت، وأخذت معها ملفات البورتريهات، ونزعت من الكومة البورتريه الخاص بها، ووضعت كل الملفات الأخرى في حقيبة كبيرة. ارتدت ملابسها وطلبت سيارة أجرة. وطلبت أن يأخذها إلى جوار المتحف البريطاني، لأنها كانت قد قررت أنه إذا كان هناك شخص في العالم يمكنه مساعدتها، فذلك الشخص هو دوك مالوري.

٦١.

كانت قد عرفت مالوري في مكتب توم، كان أحد أولئك الأشخاص الكثيرين اللا منطقيين الذين يعملون هناك، على الرغم من أن كلمة «يعمل» لم تساعد كثيراً على نقل الفكرة. كان عمره حوالي الخمسين، كان له اسم حقيقي ولكن كان الجميع يدعونه

«دوك»، كان توم يحتفظ به بالقرب منه منذ زمن طويل، وكان يعتبره شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه على الإطلاق. مالوري، في الواقع، كان الرجل الذي قرأ كل شيء. كانت لديه ذاكرة رائعة، وكان يبدو أنه قد قضى حياتين يتصفح الكتب ويرتبها في فهرس معجزي ذهني خاص به. كان يمكن العثور عليه دائماً على مكتبه يقرأ. كان يرتدي دائماً سترة ورباط عنق، لأنه، يؤكد، لا بد التعامل مع الكتب، كلها وحتى البشع منها، باحترام. كانوا يذهبون إليه ليعرفوا التهجي الدقيق للأسماء الروسية، أو ليعطيهم فكرة عن الأدب الياباني للعشرينيات. أشياء من هذا القبيل. رؤيته في أثناء العمل كانت نوعاً من الامتياز. في إحدى المرات اتُّهم أحد كتاب توم بالنقل، وكان يبدو أنه قد نقل مشهد شجار من كتاب بوليسي أمريكي من الخمسينيات. نزع توم الصفحات المتهمة من الكتاب وأخذها إلى مالوري.

ـ انظر قليلاً إذا كنت تستطيع أن تتذكر ثلاثين من الكتب يوجد فيها مشهد من هذا النوع، قال له.

وبعد ساعتين من الزمن، ظهر مالوري ومعه قائمة دقيقة من مشاهد الشجار والتقاتل التي كانت تبدو كأنها كُتبت باليد نفسها.

قال له توم: رائع!

أجابه مالوري: هذا واجبي! وعاد مرة أخرى إلى مكتبه، ليقرأ السيرة الذاتية لميجيللانو.

عندما مات توم، فتح هو بمدخراته مكتبة صغيرة خلف المتحف البريطاني، وضع فيها فقط الكتب التي كان يحبها. كانت ريبيكا تذهب إليه هناك من حين إلى آخر، فقط لأنها كانت تحب أن تصافحه وتتحدث معه قليلاً. ولكن ذلك اليوم كان مختلفاً، كان لديها شيء أكثر تحديداً لتسأله إياه. عندما دخلت إلى محله، قبل أن

تصافحه، قلبت اللافتة المعلقة على الباب، والمكتوب عليها «نعم المحل مفتوح! للناحية الأخرى المكتوب عليها «لن أعود على الفور».

قال مالوري من خلف منضدة البيع: يبدو لي أن لديكِ النية لتمكثي طويلاً.

قالت ريبيكا: يمكنك أن تقسم على ذلك.

٦٢.

وضعت الحقيبة الكبيرة على الأرض وذهبت لتقبّله، ليس لأنها كانت تحبه بالفعل، ولكن شيء من هذا القبيل. كانت رائحته لا تتغير، رائحة الأتربة وحلوى العرقسوس.

ـ لا يبدو عليكِ أنكِ أتيتِ إلى هنا لتبتاعي كتاباً يا ريبيكا.

ـ في الواقع، لقد أتيت لأمنحك يوماً لن تنساه.

ـ آهه.

ـ دون، هل تتذكر جاسبر غوين؟

ـ هل تمزحين؟

ثم بدأ بالفعل في سرد سيرته الذاتية الكاملة.

ـ تجاهل هذا، هناك شيء آخر أرغب في أن أسألك عليه. هل تتذكر قصة البورتريهات تلك؟

أخذ مالوري يضحك.

ـ ومن لا يتذكرها، لم يكُن أحد يتحدث عن شيء آخر لدى توم.

ـ هل عرفت عنها شيئاً؟

ـ في الحقيقة كنتِ أنتِ التي تعرفين كل شيء.

ـ أجل، ولكن هل كنت تعرف عنها شيئاً آخر.

ـ قليلاً. يقولون إنه أصيب بالجنون، خلف تلك الفكرة. وهناك أيضاً إشاعة كانت تقول إنه استطاع أن يبيع البورتريه الواحد بمئة ألف إسترليني.

قالت ريبيكا: يا ليت.

ـ أترين أنكِ أنتِ من تعرفين الحكاية بتفاصيلها؟

ـ أجل، ولكنني لا أعرف كل شيء، ينقصني جزء وأنت فقط من يمكنه مساعدتي.

ـ أنا؟

انحنت ريبيكا على الحقيبة الكبيرة، وأخرجت منها الملفات، ووضعتها على المنضدة الكبيرة.

كان مالوري يعمل على بعض الفواتير، عندما دخلت، ولذلك كان مشمراً قميصه. التفت، وذهب ليأخذ سترته، ارتداها وعاد مرة أخرى خلف المنضدة.

قال: هل هذه هي؟

أجل.

ـ هل يمكنني؟

أدار الملفات لجهته، واكتفى بأن يضع يديه فوقها، وهي مفتوحة، برقة.

ـ كان توم يمكن أن يقطع ذراعه في مقابل أن يستطيع قراءتها. قال بمسحة من الحزن.

ـ وأنت؟

رفع مالوري نظرته تجاهها.

ـ أنتِ تعرفين أن قراءتها ستكون امتيازاً بالنسبة إليّ.

ـ إذًا افعل هذا يا دوك، فأنا أحتاج أن تفعل هذا.

مالوري مكث في صمت لبرهة، وكانت عيناه تلمعان.

سأل: لماذا؟

ـ أحتاج إلى أن أعرف إذا كان قد نقلها.

ـ *نسخها*؟

ـ أخذها من كتب أخرى، لا أعرف، شيء من هذا القبيل.

ـ بالتأكيد لا، ليس لهذا أي معنى.

ـ أشياء كثيرة لا معنى لها عندما يتعلق الأمر بجاسبر غوين.

ابتسم مالوري. كان يعرف أنها على حق.

سألها: هل قرأتيها؟

ـ تقريباً.

ـ وأصبحت لديكِ فكرة معينة؟

ـ لا. ولكنني لم أقرأ كل الكتب الموجودة في العالم.

انفجر مالوري في الضحك.

ـ انتظري، فأنا لا أقرؤها كلها، عادةً ما أتصفحها. قال.

ثم اقترب أكثر من الملفات.

ـ في رأيي أنتِ مجنونة.

ـ فلتنزع عني هذا الشك. اقرأها.

تردد هو مرة أخرى لوهلة.

ـ سيكون من دواعي سروري.

ـ إذًا اقرأها.

ـ حسنٌ، سأقرؤها.

ـ لا، لا، أنت لم تفهم، اقرأها الآن، ثم انسَها على الفور، وإذا فقط تحدثت عنها مع أي شخص، سآتي شخصياً لأنزع بيضك.

نظر إليها مالوري، ابتسمت ريبيكا.

ـ كنت أمزح.

ـ آه.

ـ لكن ليس كثيراً.

ثم نزعت المعطف الواقي من المطر، وبحثت عن مقعد حيث يمكنها الجلوس وقالت لمالوري أن يأخذ ما يحتاجه من الوقت، فلديهما اليوم كله.

ـ هل لديك شيء لأقرأه، حتى لا أشعر بالملل؟ سألته.

أشار مالوري تجاه أرفف الكتب، دون أن يرفع عينيه عن الملفات التي ما زالت مغلقة.

قال: تصرفي، فلديَّ ما أفعله.

٦٣.

بعد ذلك بساعتين، أغلق مالوري الملف الأخير، ولوهلة مكث في سكون. رفعت ريبيكا نظرتها عن الكتاب وأوشكت أن تقول شيئاً ما، لكن مالوري أشار ليسكتها. كان يرغب في أن يمكث بعض الوقت ليفكر، أو كان يلزمه الزمن ليعود إلى مكان ما، بعيداً جدّاً.

في النهاية سأل ريبيكا ماذا كان يفكر العملاء في بورتريهاتهم. فقط من باب الفضول.

أجابت ريبيكا: كانوا دائماً في حالة من الرضا التام. كانوا يتعرفون على أنفسهم. كان شيئاً لم يتوقعوه، نوعاً من السحر.

أومأ مالوري بالموافقة.

ـ أجل يمكنني تخيل هذا.

ثم سأل شيئاً آخر.

ـ هل تعرفين ذلك الخاص بتوم؟

لم تكُن هناك أسماء على البورتريهات، وكان يمكن أن تكون بورتريهات أي شخص.

ـ لست متأكدة، ولكنني أعتقد أنني تعرفت عليه.

ونظر كل منهما للآخر.

تجرأ مالوري: أليس ذلك الذي يوجد فيه الأطفال فقط؟

أومأت ريبيكا بالموافقة.

قال مالوري ضاحكاً: يمكنني الرهان على هذا.

ـ إنه توم بالتأكيد، أليس كذلك؟

ـ بشحمه ولحمه.

ابتسمت ريبيكا. كان شيئاً لا يمكن تصديقه، كيف أن ذلك الرجل استطاع أن يفهم كل شيء، دون أن يطرح سؤالاً واحداً. وفكرت، ربما قراءة آلاف الكتب ليست شيئاً بلا فائدة في نهاية الأمر. ثم تذكرت أنها جاءت إلى هنا لتعرف شيئاً محدداً.

ـ وما تلك القصة الخاصة بالنسخ، ماذا لديك لتقول لي، يا دوك؟

قالت هذا كأنها تفصيلة لم تعد لها أهمية.

تردد مالوري لوهلة. قام بإشارة غامضة، وكسب بعض الوقت بأن أخرج منديلاً كبيراً طارداً ما في أنفه بصخب، وبينما كان يعيد طيه

ويضعه مرة أخرى في جيبه، قال إنه قرأ أحد تلك البورتريهات من قبل. أخذ ملفاً من بين الآخرين ووضعه فوق المكتب. فتحه. وقرأ بعض سطوره.

ـ أجل، هذا يأتي مباشرةً من كتاب آخر، قال هذا دون حماس.

شعرت ريبيكا بقبضة في مكان ما ولم تستطع أن تخفي امتعاضاً.

سألته: هل أنت متأكد؟

ـ أجل.

أصبح كل شيء أكثر تعقيداً بشكل مؤذٍ.

سألته: هل تتذكر اسم الكتاب؟

ـ أجل، اسمه، «ثلاث مرات في الفجر». كتاب جميل، مختصر. أتذكر أن الجزء الأول فيه يشبه جدّاً ذلك البورتريه، ربما لا يكون مشابهاً له بالحرف، ولكن يبدو لي أطول. ولكن أقسم أن بعض العبارات هي نفسها، والمشهد أيضاً، الاثنين في الفندق، لا شك في ذلك.

مررت ريبيكا يدها على شعرها. فكرت: اللعنة. ثم أخذت الملف المفتوح ولفته، ألقت بنظرة على بداية البورتريه. أحد أجملهم، يا للشقاء.

سألته: وهل لديك هذا الكتاب؟

ـ لا، ليس لديّ، لقد نفد على الفور. لقد طبعته دار نشر صغيرة في نسخ قليلة، كان شيئاً نادراً.

ـ بأي معنى؟

ـ كانوا قد عثروا عليه بين أوراق مدرس موسيقى مسن، هندي، مات قبل ذلك ببضعة أعوام. لم يكُن أحد يعرف أنه كتب من قبل أي

شيء، ولكن ظهرت فجأة تلك الحكاية. وجدوها جميلة، ونشروها، كان ذلك منذ حوالي عامين، ولكن طُبعت فقط حوالي ألف نسخة، ربما أيضاً أقل. شيء لا يُذكر.

رفعت ريبيكا نظرتها نحوه: ماذا قلت؟

ـ من أي جهة؟

ـ كرر ذلك الذي قلته.

ـ لا شيء... أن من كتبه شخص هندي مات منذ عدة أعوام، شخص كان يعمل في شيء مختلف تماماً، في أثناء وجوده على قيد الحياة لم ينشر أي شيء، إلا أنه شيء كالطفرة، أليس كذلك؟ ولكن جميل جداً، يجب أن أقول. شيء مطابق لما يمكن لشخص مثل جاسبر غوين كتابته.

فكرت ريبيكا: شيء مطابق لما يمكن لشخص مثل جاسبر غوين كتابته. ولم يفهم دوك مالوري، ولكنه فجأة وجدها على الناحية الأخرى من المنضدة وهي تحضنه. ولم يفهم حتى سبب تحول عينيها للون الأحمر.

ـ دوك، أنا أحبك.

ـ كان لا بد أن تقولي لي هذا من سنوات مضت يا بيبي.

ـ لا، لم يكُن ينقلها يا دوك، لم يكُن ينقلها على الإطلاق.

ـ إنني في الحقيقة أثبت لكِ الآن العكس.

ـ في أحد الأيام سأشرح لك، ولكن لا بد وأن تصدقني، لم يكُن ينقلها.

ـ وماذا عن «ثلاث مرات في الفجر»؟

ـ اتركه لحاله، لا يمكنك أن تفهم، ولكن قل لي إن لديك ولو نسخة.

ـ لقد قلت لكِ للتو، ليس لديّ.

ـ ألا يمكن ألا يكون لديك شيء، أنت.

ـ هيه يا آنسة!

ـ إنني أمزح، هيا، اكتب لي العنوان واسم المؤلف.

فعل مالوري هذا. ألقت ريبيكا نظرة.

ـ أكاش نارايان، ثلاث مرات في الفجر، حسنٌ.

ـ كان اسم دار النشر عجيباً مثل الحبة والقشة، شيء من هذا القبيل.

ـ سأتصرف. الآن لا بد أن أذهب لأبحث عنه.

جمعت الملفات، ووضعتها من جديد في الحقيبة الكبيرة، وبينما كانت ترتدي المعطف الواقي من المطر ذكّرت مالوري ماذا يمكن أن يحدث له إذا جرؤ وتحدث مع أحد عن ذلك الذي قرأه هذا اليوم.

ـ حسنٌ، حسنٌ.

ـ سأعود قريباً وسأحكي لك كل شيء. أنت عظيم يا دوك.

وجرت مبتعدة كأنها متأخرة أعواماً. وبشكل ما، هذا ما كانته بالفعل.

قبل أن يغلق المكتبة في ذلك المساء، ذهب دوك مالوري إلى الرف الذي يضع فوقه اثنتين من الروايات الثلاث التي ألّفها جاسبر غوين (لم تعجبه الأولى قط). أخذهما، ولوهلة أخذ يديرهما بين يديه. قال شيئاً ما بصوت منخفض، وأومأ إيماءة صغيرة برأسه، ربما انحناءة.

٦٤.

عثرت ريبيكا على «ثلاث مرات في الفجر» في مكتبة ضخمة في شارينج كروس، وللمرة الأولى فكرت في أن تلك السوبرماركت الكريهة للكتب ربما كان لها معنى. لم تقاوم الإغراء وأخذت في تصفحه هناك، وهي جالسة على الأرض، في ركن هادئ حيث توجد أطروحات عن صحة الطفل.

كانت دار النشر بالفعل لها اسم من تلك الأسماء. الكرم والمحراث. فكرت، اسم بشع. وعلى ظهر الغلاف كانت هناك نبذة عن السيرة الذاتية لأكاش ناريان. كانت تقول إنه وُلد في برمنجهام، وإنه عاش هناك حتى موته في سن الثانية والتسعين، بعد أن قضى حياته كلها في تعليم الموسيقى. لم تحدد نوع الموسيقى. ثم ذكرت النبذة أن كتاب «ثلاث مرات في الفجر» كان كتابه الوحيد، وأنه نُشر بعد وفاته. لا شيء آخر، ولا حتى أي أثر لصورة فوتوغرافية.

وحتى الربع الأخير من الغلاف كان لا يقول كثيراً، فقط يكشف أن القصة تدور في مدينة إنجليزية غير محددة، وأنها كلها حدثت في ساعتين، وكانت تضيف، أنهما كانتا ساعتين غاية في التناقض، بنبرة كان من المقصود أن تكون غامضة.

وعندما ألقت بنظرة على الغلاف الداخلي، اكتشفت أن الكتاب كان مكتوباً بلغة هندية، وتمت ترجمته إلى الإنجليزية، لم يعنِ لها اسم المترجم شيئاً، ولكنها قرأت برضا كبير الإهداء الغريب الذي يظهر في مقدمة الفصل الأول:

إلى كاترينا داي ميديتشي، وإلى معلم كامدن تاون.

قالت بصوت منخفض: حمداً لله على سلامتك يا مستر غوين.

ثم هرعت نحو المنزل، لأن لديها كتيباً ترغب في قراءته.

٦٥.

تركت إيما لتنام لدى جدتها، وطلبت من روبرت إذا كان يمكنه الذهاب إلى السينما مع بعض الاصدقاء لأنها تحتاج بشدة لأن تمكث بمفردها ذلك المساء في المنزل. كان لديها عمل عسير وكانت ستحب أن تنجزه دون أن يكون هناك من يتجول في المنزل. قالت له ذلك بطريقة جميلة، وهو كان كما قلنا، ذا طابع مُحبب. سأل فقط في أي ساعة يمكنه العودة.

حاولت ريبيكا: هل يمكن بعد الساعة الواحدة؟

قال هو: سنرى. حيث إنه كان في ذهنه أن يقضي أمسيته بأن يشاهد التلفاز لنصف ساعة ثم الذهاب إلى الفراش مبكراً.

ثم، قبل أن يخرج، قبّلها وسألها فقط:

ـ لا يجب أن أشعر بالقلق، أليس كذلك؟

قالت ريبيكا: لا، على الإطلاق.

حتى وإن لم تكُن متأكدة تماماً من هذا.

عندما أصبحت بمفردها، جلست أمام المائدة وبدأت القراءة، وكما كان متوقعاً، لم يخطئ دوك، كان كتاب «ثلاث مرات في الفجر» مقسماً إلى ثلاثة أجزاء وكان الجزء الأول منها يشبه كثيراً أحد بورتريهات جاسبر غوين. كان بالفعل حقيقياً أنه أطول، ولكن، عندما أخذت تفحصه، أدركت ريبيكا أن الأشياء المهمة كانت كلها موجودة. بلا أي شك توجد صلة حميمية بين النصين.

لم يخطئ دوك أيضاً عندما قال إن الكتاب كان كتاباً جميلاً. الجزءان الآخران كانا يتسربان بنعومة حتى أن ريبيكا انتهت من قراءتهما وقد نسيت في أجزاء كثيرة السبب الحقيقي لما تفعله،

والأدق من هذا أنها كانت حوارات، وكان للرواية بطلان لم يتغيَّرا، ولكن بطريقة متناقضة ومدهشة. في النهاية شعرت بالندم إن أكاش نارايان قد قضى كل ذلك الوقت في تعليم الموسيقى، بينما كان يمكنه أن يكتب أشياءً من هذا القبيل، بشرط تصديق أن له وجوداً فعلياً.

نهضت ريبيكا لتعد لنفسها بعض القهوة. نظرت إلى الساعة، ورأت أنه ما زال لديها جزء كبير من الأمسية. ذهبت لتأخذ بورتريهات جاسبر غوين وتضعها على المائدة.

حسنٌ، قالت لنفسها، لنلخص. رود لا وجود لها، وجاسبر غوين هو من يكتب كتبها. الشيء نفسه بالنسبة إلى آكاش نارايان، وحتى الآن الأمر مفهوم، فكرت. يمكنني أن أتخيل لماذا أدرج البورتريه الخاص بي في كتاب رود، لأنه كان يحبني (فكرت في هذا وهي تبتسم). الآن لنحاول أن نكتشف لماذا بحق الشيطان وضع البورتريه الآخر في «ثلاث مرات في الفجر». لماذا هذا البورتريه إذاً؟ من يكون هذا الوغد الذي استحق هدية جميلة مثل هديتي؟ تساءلت، وكانت قد بدأت تشعر بالتسلية.

المشكلة كانت في أن البورتريهات التي عهد بها إليها جاسبر غوين لم يكُن بها أي شي يمكنه من خلالها أن تنسبه بثقة إلى أحد العملاء الذين دفعوا لتكون لهم. لم يكُن هناك اسم، أو تاريخ، لا شيء. من جهة أخرى كانت التقنية التي تمت بها كتابتهم، بسيطة ولكنها فريدة، بحيث لم يكُن من السهل التعرف على الشخص الذي أوحى بها، إذا لم تكُن تعرفه بالفعل معرفة عميقة. كان، بشكل عام، يوحي بعمل ممتنع.

بدأت ريبيكا عملية الاستبعاد. كانت قد قرأت صفحة من بورتريه تلك الفتاة، وبراحة عميقة كان يمكنها أن تقول إن البورتريه الموجود

في «ثلاث مرات في الفجر» لم يكُن يخصها. بورتريه توم بدا لها أنها تعرفت عليه، وإذا كان لديها بعض الشكوك فقد أزاله مالوري: إذاً يمكن أيضاً استبعاد هذا (للأسف، فكرت، كانت الحالة الوحيدة التي لن تتسبب لها في الضيق). إذًا تبقت لديها تسعة.

أخذت ورقة وفيها كتبت قائمة عمودية:

مستر تراولي

السيدة الأربعينية المجنونة بالهند (آه، فكرت)

المضيفة السابقة

الفتى الرسام

الممثل

المتزوجان حديثاً

الطبيب

المرأة وأشعارها الأربعة لفيرلان

حائك الملكة

النهاية.

نهضت وذهبت لتأخذ البورتريهات. نحت الملفات التي بها البورتريه الخاص بها وتوم والفتاة جانباً، ثم فتحت الملفات الأخرى وبسطتها على المكتب.

الآن لنرَ إذا كان من الممكن تزويجها بالشخصيات الموضوعة في القائمة. كان شيئاً يمكن أن يحطم الذهن، ولذلك أدركت ريبيكا فقط بعد وهلة شيئاً كان لا بد أن تدركه منذ فترة ولكنها تركته بلا تفسير. كانت الشخصيات تسعاً ولكن البورتريهات كانت عشرة.

فحصت الأمر ثلاث مرات، لم يكُن هناك شك.

كان جاسبر غوين قد أرسل لها بورتريهاً زائداً.

فكرت: مستحيل. لقد اتفقت هي على تلك البورتريهات واحداً تلو آخر، لقد تابعتها منذ البداية إلى النهاية، وكان من غير المعقول طوال الفترة التي عملا فيها معاً أن تكون لدى جاسبر غوين طريقة لأن ينفِّذ بورتريهاً لا تعرف هي عنه شيئاً.

ذلك البورتريه لا يجب أن يوجد.

وعادت لتحصي.

لا شيء، فهي بالفعل عشرة.

من أين ظهر ذلك العاشر؟ من بحق الشيطان هو؟

وفجأة فهمت، بسرعة البرق التي يمكن أن يفهم بها المرء شيئاً ما أحياناً، بعد فترة طويلة، أشياء كانت دائماً موجودة تحت نظره، فقط إذا استطاع أن ينظر إليها.

أخذت في يدها البورتريه الذي انتهى أمره في «ثلاث مرات في الفجر»، وأخذت تعيد قراءته.

كيف لم أفكر في ذلك من قبل؟ تساءلت.

بهو الفندق، يا للغباء.

استمرت في القراءة، بشراهة، كأن الكلمات قد ابتلعتها.

فكرت: يا للشيطان، إنه هو بنفسه، تماماً.

عندئذٍ رفعت نظرها عن تلك السطور وأدركت أن كل البورتريهات التي قام بها جاسبر غوين ستظل مختبئة، مثلما كان يتمنى هو، لكن اثنين قاما بذلك بطريقة فريدة، فهما سيدوران العالم بعد أن تمت حياكتهما بسرية في صفحات كتابين، واحد تعرفه جيداً جدّاً، وهو البورتريه الخاص بها. الآخر تعرفت عليه للتو، وكان هو

البورتريه الذي يحاول أن يرسمه أي رسام إن آجلاً أم عاجلاً، البورتريه الذاتي، ومن بعيد بدا لها كأنما ينظر كلاهما إلى الآخر، كأن بينهما سراً فوق كل تلك الأسرار الأخرى. فكرت: الآن بالفعل، الآن الأمر كما لم أتوقف قط عن تخيله.

نهضت وبحثت عن تصرف ما تفعله. شيء بسيط. عادت لتعيد ترتيب الكتب التي كانت مطروحة في كل مكان، في أنحاء المنزل. اكتفت بأن وضعتها الواحد فوق الآخر، ولكن في كومات صغيرة، من الأكبر إلى الأصغر. في ذلك الوقت كانت تفكر في رقة جاسبر غوين التي وصلت إليها أخيراً، وهي تعيد تدويرها في ذهنها، وفي متعة مراقبتها من كل اتجاه. كانت تفعل هذا في ضوء فرحة غريبة، لم تختبرها من قبل، وبدا لها أنها كانت تحملها معها لأعوام، في انتظار اكتشافها. بدا لها من المستحيل أن تكون قد نجحت في عمل شيء آخر في تلك الفترة، سوى حمايتها وإخفائها. فكرت: هناك أشياء يمكننا أن نفعلها: أن ننمو، أن نحب، ننجب أطفالاً ونتقدم في السن، كل هذا بينما نتواجد في مكان آخر، في ذلك الزمن الممتد لإجابة لم تصل إلينا، أو لتصرف ما لم ينته. كم من الدروب، وكم خطوة مختلفة نعيد اجتيازها، في تلك التي تبدو رحلة واحدة.

عندما عاد روبرت إلى المنزل، وهو على درجة كبيرة من السكر، كانت هي ما زالت مستيقظة، ولكنها كانت تجلس على الأريكة، وعلى المائدة كانت كل الملفات ما زالت متناثرة.

سألها: هل كل شيء على ما يرام؟

ـ أجل.

ـ هل أنتِ متأكدة؟

ـ أجل، أعتقد.

٦٦.

ثم كان يمكنها أن تفعل أشياءَ كثيرة، وواحدة منها مؤكدة: اكتشاف أين يختبئ جاسبر غوين. لم يكُن من الصعب الوصول إليه بالمرور من ناشر رود أو ذلك الذي نشر «ثلاث مرات في الفجر». بالتأكيد في مقابل صمتها كانوا سيمنحونها عنواناً، أو شيئاً ما.

على كل حال، لأيام مختلفة، عاشت حياتها الطبيعة، كانت فقط تسمح لنفسها من حين لآخر ببعض الأفكار الخفية. من حين لآخر كانت تفقد نفسها في تخيل مشهد تصل فيه إلى مكان غريب، وتجلس أمام منزل ما، لتنتظر. كانت تتخيل أنها لن تعود قط. أكثر من مرة كتبت وأعادت كتابة خطاب موجز في ذهنها، كانت تفكر في كتابته بيدها، بخط أنيق. كان سيعجبها أن يعرف أنها عرفت، ليس أكثر، وأن هذا أسعدها جدّاً. من حين لآخر كانت تفكر في دوك، وكم سيكون جميلاً أن تحكي له كل شيء، أو في كيف سيكون جميلاً أن تحكي كل شيء لأي شخص، ولمرات عديدة.

وذلك بينما كانت تحيا حياتها اليومية العادية.

عندما شعرت بأن اللحظة حانت، من بين كل الأشياء التي كان يمكنها أن تفعلها، اختارت شيئاً واحداً، أصغر شيء، الشيء الأخير.

٦٧.

وصلت إلى كامدن تاون، وكان لا بد أن تسأل عدداً كبيراً من الناس قبل أن تعثر على محل المسن، صانع المصابيح. عثرت عليه جالساً في زاوية، ويداه لا تتحركان. لا بد أن الأمور لا تسير على خير حال.

سألت وهي تدخل: هل يمكنني؟

أشار المسن بإحدى إشاراته.

ـ اسمي ريبيكا. منذ عدة أعوام كنت أعمل مع جاسبر غوين، هل تتذكره؟

ضغط المسن على أحد الأزرار واشتعل ضوء مرن ومرهق.

ـ غوين؟

ـ أجل. كان يأتي هنا ليبتاع مصابيح للاستوديو الخاص به، وكان يأخذ ثمانية عشر، دائماً من النوع نفسه.

ـ بالتأكيد أتذكره، أنا مسن ولكنني لست غبياً.

ـ لم أقصد قول هذا.

نهض المسن وتقدم من المنضدة.

قال: لم يعد يأتي قط.

ـ لا، لم يعد يعمل في المدينة، أغلق الاستوديو، ورحل.

ـ إلى أين.

ترددت ريبيكا لوهلة.

قالت: ليس لدي أدنى فكرة.

ضحك المسن ضحكة جميلة، أكبر سناً منه. كان يبدو مسروراً أن جاسبر غوين نجح في ألا يعثر أحد له على أثر.

قال: اعذريني.

ـ على ماذا؟

ـ لدي نقطة ضعف أمام من يختفون.

قالت ريبيكا: لا تقلق، أنا أيضاً.

ثم أخرجت كتاباً من حقيبتها.

ـ لقد أحضرت لك شيئاً. فكرت أنه سيعجبك.

ـ لي أنا؟

ـ أجل لسيادتك.

ثم وضعت «ثلاث مرات في الفجر» على المنضدة. كانت النسخة التي قرأتها هي، لم تنجح في العثور على نسخة أخرى.

ـ ما هذا؟ سألها المسن.

ـ كتاب.

ـ أرى هذا، ولكن ماذا يكون؟

ـ إنه كتاب ألّفه جاسبر غوين.

لم يلمسه المسن.

ـ لقد توقفت عن القراءة منذ ستة أعوام.

ـ حقاً؟

ـ مصابيح أكثر من اللازم. ضعف نظري كثيراً. أفضّل أن أوفره لعملي.

ـ يؤسفني هذا. على كل حال ليس من الضروري أن تقرأ هذا الكتاب فعلاً، يكفي أن تقرأ منه سطراً واحداً فقط.

سألها المسن، وقد بدا عليه الضيق: ما هذا، لعبة؟

قالت ريبيكا: لا، لا، لا شيء من هذا القبيل.

فتحت الكتاب على الصفحة الأولى وقربته من المسن.

لم يلمسه المسن. وجّه نظرة متشككة إلى ريبيكا، ثم انحنى على الكتاب. كان لا بد أن يقترب كثيراً جدّاً بالفعل، حتى أن أنفه تقريباً لمس الورقة.

كان عليه فقط أن يقرأ عنوان الكتاب والإهداء. استغرق ذلك بعض الوقت، ثم عاد ليرفع رأسه.

سأل: ما معنى هذا.

ـ لا شيء. إنه إهداء. لقد أهدى جاسبر غوين لك هذا الكتاب، ليس إلا. إلى سيادتك وإلى مصابيحك، هذا ما فهمته.

عاد المسن ليخفض رأسه من جديد بتلك الطريقة المبالغ فيها وقرأ كل شيء من البداية. كان يحب أن يفحص الأمر جيداً.

ثم نهض وأخذ الكتاب من يدي ريبيكا، وبعناية يحتفظ بها عادةً لمصابيحه.

سألها: هل يتحدث عني؟

ـ لا، في الحقيقة، لا أعتقد ذلك. أعتقد أنه أهداه لك لأنه كان يقدّرك كثيراً، وأنا متأكدة من هذا. كان يحترم سيادتك بدرجة كبيرة.

ابتلع المسن ريقه، وأخذ يلف الكتاب في يده.

قالت ريبيكا: احتفظ به، إنه لك.

ـ حقاً؟

ـ بالتأكيد.

مبتسماً، خفض المسن نظره نحو الكتاب ولوهلة مكث ليتأمل الغلاف.

وعلق: ولكن لا يوجد اسم مستر غوين.

ـ من حين لآخر يحب جاسبر غوين أن يؤلف كتباً بأسماء مستعارة.

ـ لماذا؟

رفعت ريبيكا كتفيها.

ـ إنها قصة طويلة. يمكن أن نقول إنه يحب ألا يصل إليه أحد.

ـ أن يختفي.

ـ أجل أن يختفي.

أومأ المسن بالموافقة، كأنه قادر على تفهم ذلك جيداً.

قال: كان قد قال لي إنه يعمل كناسخ.

ـ لم يكُن هذا بعيداً كل البعد عن الحقيقة.

ـ بمعنى؟

ـ عندما تعرف علي سيادتك كان ينسخ الناس. كان يصنع بورتريهات.

ـ لوحات.

ـ لا، كان يكتب البورتريه.

ـ هل هذا شيء له وجود؟

ـ لا. أقصد لقد بدأ في الوجود عندما بدأ هو في عمله.

فكر المسن لوهلة، ثم قال إن المصابيح المصنوعة يدوياً أيضاً لم يكُن لها وجود قبل أن يبدأ هو في عملها.

أضاف: في البداية اعتقد الجميع أنني مجنون.

ثم حكي أن أول من وثق فيه كانت كونتيسة تريد ضوءاً يشبه ضوء الغروب في غرفة الصالون.

وتذكر: ولم يكُن هذا شيئاً سهلاً.

مكثا فترة طويلة في صمت، ثم قالت ريبيكا إنها يجب أن تنصرف.

قال المسن: أجل بالتأكيد. كان شيئاً لطيفاً جدّاً منكِ أن تأتي حتى هنا.

ـ كان هذا من دواعي سروري، لقد مكثت أنا أيضاً أسفل ضوء مصابيحك. إنه ضوء من الصعب جدّاً نسيانه.

ربما تجمع في عيني المسن شيء كالدموع، ولكن كان من الصعب قول هذا، لأن عيون المسنين تبكي دائماً بعض الشيء.

قال: سيكون شرفاً لي إذا قبلتِ هدية صغيرة.

اقترب من أحد الأرفف، وأخذ مصباحاً، ذهب ليغلفه في ورقة شفافة وأعطاه لريبيكا.

أوضح: إنه مصباح كاترينا داي ميديتشي، تعاملي معه بحرص.

أخذته ريبيكا بحرص شديد ووضعته في حقيبتها، وبدا كأنهم أهدوها حيواناً صغيراً، حياً.

قالت: أشكرك، إنها هدية جميلة للغاية.

ذهبت تجاه الباب، إلا أنها قبل أن تصل إلى هناك بقليل، سمعت صوت المسن يطرح سؤالاً.

ـ كيف كان يفعل؟

التفتت.

ـ معذرة؟

ـ كيف كان مستر غوين يكتب البورتريهات؟

كانت ريبيكا قد سمعت هذا السؤال عشرات المرات. أخذت تضحك، ولكن ظل المسن جاداً.

ـ أقصد أن أقول، كيف بحق الشيطان كان يكتب تلك البورتريهات؟

كانت لدى ريبيكا إجابة تمرنت منذ أعوام على استخدامها في كل مرة كان يُطرح عليها هذا السؤال، لتنهي الأمر. كانت على وشك أن تنطق بها عندما شعرت بالضوء الناعم والمتعب حولها، عندئذٍ قالت شيئاً آخر.

قالت: كان يكتب قصصاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ قصصاً؟

ـ أجل، كان يكتب جزءاً من قصة ما، مشهداً، كأنه قسم من كتاب.

هز المسن رأسه.

ـ لكن الكتب ليست بورتريهات.

ـ كان جاسبر غوين يراها كذلك. في أحد الأيام، بينما كنا نجلس في متنزه، شرح لي أن كلاً منا لديه فكرة معينة عن نفسه، ربما مجرد مسودة، مضطربة، ولكن في نهاية الأمر نحن منقادون لتكون لنا فكرة معينة عن أنفسنا، والحقيقة هي أنه عادةً ما تكون تلك الفكرة مطابقة لشخصية معينة خيالية نتعرف فيها على أنفسنا.

ـ مثل؟

فكرت ريبيكا قليلاً في الأمر.

ـ مثل شخص يرغب في العودة إلى منزله ولكنه لا يجد الطريق، أو آخر يرى الأشياء دائماً لحظة قبل الآخرين. أشياء من هذا القبيل. إنه ذلك الذي يمكننا أن نستنتجه عن أنفسنا.

ـ ولكنه شيء أحمق.

ـ لا. فقط غير محدد.

حدق إليها المسنّ. كان من الواضح أنه يرغب بالفعل أن يفهم.

ـ علمني جاسبر غوين أننا لسنا أشخاصاً، ولكننا حكايات. قالت ريبيكا. لنتوقف أمام فكرة أننا كشخصية مندمجة، ربما، في مغامرة ما، حتى وإن كانت غاية في البساطة، ولكن ذلك الذي علينا أن نفهمه هو أننا القصة كلها، لسنا تلك الشخصية فحسب؛ نحن الغابة التي تسير فيها، والشرير الذي يخدعها، الأصوات المحيطة بها، كل الأشخاص الذين يمرون، لون الأشياء، الضوضاء. هل تستطيع أن تفهم؟

ـ لا.

ـ سيادتك تصنع المصابيح، هل حدث لك في مرة من المرات أن رأيت ضوءاً تعرفت فيه على نفسك؟ أنه أنت بالتحديد؟

تذكر المسن مصباحاً صغيراً معلقاً على ضوء أحد الأكواخ، منذ سنوات بعيدة.

قال: حدث مرة.

ـ إذًا يمكنك أن تفهم. إن ضوءاً ما هو بالتحديد شذرة من قصة ما. إذا كان هناك ضوء مثلك، سيكون هناك أيضاً صوت ما، زاوية في الطريق، رجل يسير، رجال كثيرون، أو امرأة بمفردها، أشياء من هذا النوع. لا تتوقف عند الضوء، بل فكر في كل شيء آخر، فكر في قصة. هل تستطيع أن تفهم أنها موجودة، في مكان ما، وإذا استطعت أن تعثر عليها سيكون ذلك هو بورتريهك؟

أشار المسن بإحدى إشاراته. كانت تشبه أجل مبهمة. ابتسمت ريبيكا.

ـ كان جاسبر غوين يقول إن كلنا عبارة عن بضع صفحات في كتاب، لكنه كتاب لم يقرأه أحد قط، وإننا نبحث بلا جدوى في أرفف ذهننا. ولكنه يقول إن ذلك الذي كان يحاول أن يفعله هو أن

يكتب ذلك الكتاب للناس التي تذهب عنده. الصفحات الدقيقة، وكان واثقاً أنه يمكنه عمل هذا.

ابتسمت عينا المسن

ـ وهل كان ينجح؟

ـ أجل.

ـ كيف كان يفعل هذا؟

ـ كان ينظر إليهم، لفترة زمنية طويلة، حتى يستطيع أن يرى القصة التي كانوها.

ـ ينظر إليهم فحسب.

ـ أجل. كان يتحدث معهم قليلاً، ولكن قليلاً، ومرة واحدة فقط، والأهم من هذا هو أنه كان يترك الزمن يمر عليهم وينزع عنهم أشياءً كثيرة، ثم كان يعثر على القصة.

ـ قصص من أي نوع؟

ـ كان هناك كل الأنواع. امرأة تحاول أن تنقذ ابنها من حكم بالإعدام، خمسة رواد فضاء يعيشون فقط في الليل، وهكذا. ولكن فقط جزء، مشهد، وكان يكفي.

ـ وفي النهاية كان الناس يتعرفون على أنفسهم.

ـ أجل كانوا يتعرفون على أنفسهم في الأشياء التي تحدث، في الأشياء والألوان والنبرة، في إيقاع معين، في الضوء وأيضاً في الشخصيات بالتأكيد، ولكن في كل شيء وليس في شيء واحد، في كل شيء، في الوقت نفسه. أتعرف، فنحن أشياء كثيرة، نحن، والأشياء معاً.

ضحك المسن بقوة، ولكن بطريقة جميلة وأنيقة.

قال: من الصعب تصديقك.

ـ أعرف، ولكنني أؤكد لك أن الأمر كان كذلك.

ترددت لوهلة، ثم أضافت شيئاً بدا لها أنها فهمته فقط في تلك اللحظة.

ـ عندما قام بعمل البورتريه لي، قرأته، وفي النهاية، كان هناك منظر طبيعي، في بقعة ما، أربعة أسطر لمنظر طبيعي، وكنت أنا هذا المنظر، صدقني، كنت أنا كل تلك القصة، كنت الصوت في تلك القصة، الخطوة والطقس، وكل شخصية في تلك القصة، ولكن بدقة غير عادية كنت ذلك المنظر الطبيعي، كنته دائماً، وسأكونه إلى الأبد.

ابتسم المسن.

ـ أنا متأكد أنه كان منظراً جميلاً جدّاً.

قالت ريبيكا: كان كذلك بالفعل.

كان المسن في نهاية الأمر من ذهب نحوها ليصافحها. شدت ريبيكا على يده وأدركت أنها فعلت ذلك بحرص، كما كانت معتادة أن تفعل ذلك، منذ عدة أعوام، مع جاسبر غوين.

٦٨.

ظهر حديثاً كتاب جديد لكلاريسا رود، غير مكتمل، يبدو أن الموت فاجأها بينما كان يجب أن تكتب، حسب الخطط الموضوعة في ملحوظاتها، نصفه تقريباً. كان نصاً غريباً، لأن ضد أي منطق كان الجزء الناقص هو الجزء الأول. يوجد فصلان من أربعة، ولكن الفصلان الأخيران. إذًا بالنسبة إلى القارئ الأمر يتعلق بخبرة سيكون

على حق من يطلق عليها فردية، وفي كل الأحوال سيخطئ من يسميها عبثية، فنحن نتعرف على أبوينا بطريقة مشابهة، بل وفي أحيان حتى على أنفسنا.

بطل الكتاب هو أرصادي هاوٍ مقتنع بأنه في إمكانه توقع الطقس بناءً على منهج خاص به، إحصائي. يستنتج القارئ أنه في الجزء الأول من الكتاب، ذلك الجزء غير الموجود، ستكون هناك رواية ما عن أصول ذلك الاعتقاد، ولكن تلك الأصول لا تبدو في نهاية الأمر على قدر كبير من الأهمية عندما يبدأ الجزء الذي كتبته رود بالفعل، والذي تعيد فيه بناء الأبحاث، التي قام بها البطل على مدار الأعوام: الهدف الذي كان قد حدده هو تحديد الطقس كل يوم في الدنمارك في الأعوام الأربعة وستين الأخيرة، وليصل إلى هذا كان عليه أن يجمِّع كمية من المعطيات الرهيبة، وبإصرار وصبر، ضروريين، استطاع عمل هذا. في الجزء الأخير من الكتاب توجد إشارة إلى أنه على أساس الإحصائيات التي جمعها، أصبح الإحصائي الهاوي قادراً على أن يؤكد، على سبيل المثال، أنه في الثالث من مارس في الدنمارك ستكون احتمالية الشمس ستة بالمئة، وأنه لن توجد أمطار تقريباً في السادس والعشرين من يوليو.

لتجميع المعطيات التي احتاجها، قام الأرصادي الهاوي باستخدام منهج كان أحد أسباب سحر الكتاب: كان يسأل الناس؛ كان قد وصل إلى استنتاج أنه في المتوسط يتذكر كل شخص على حدة الطقس على الأقل في ثمانية أيام من حياته. أخذ يتجول ويسأل، ولأن كلاً منا كان يحتفظ بذكرى حالة الطقس في لحظة معينة من حياته (الزواج، موت الأب، أول يوم من أيام الحرب)، انتهى الأمر بكلاريسا رود بأن تبني معرضاً مثيراً للإعجاب من الشخصيات، الموصوفة ببراعة من خلال ملامح قليلة ولكنها بارزة.

موزايك ساحر لحياة حقيقية ومفقودة، هكذا عرّف ناقد أمريكي كبير الرواية.

ينتهي الكتاب في قرية بعيدة، حيث يعتزل الأرصادي الهاوي، راضياً بالنتائج التي حصل عليها، ومحبطاً جزئياً فقط من الصدى الضئيل الذي حصلت عليه منشوراته في الأوساط العلمية، وقبل النهاية ببضع صفحات يموت، في يوم رياحه باردة، بعد ليلة ملأتها النجوم.

خاتمة المترجمة

في أثناء تقديمه لرواية «مستر غوين» قال باريكو إن الفكرة جاءته ببساطة وهو في زيارة أحد المتاحف، كان يشعر وقتها بالملل والتعب، فجلس يراقب الزوار واللوحات أيضًا. مشهد ربما يكون قد مر على القارئ بالفعل في أثناء قراءة الرواية.

وذكر أنه كتبها في أعقاب روايته «عماوس»، التي كان يراها رواية صعبة في التأليف وكئيبة بعض الشيء، وكانت اللحظات التي تخطر فيها له أفكار عن رواية مستر غوين مثل الإطلالات المبهجة، فباريكو يعد رواية مستر غوين «مسلية، وممتعة».

رواية مستر غوين (مستر جوين إذا نُشرت في مصر)، كما هو واضح من العنوان، تدور أحداثها في إنجلترا في لندن. وهذا ما أردت الاحتفاظ به في الترجمة أيضًا، فلم أستخدم «السيد غوين» إلا في المرات القليلة التي كتبها باريكو بها بالإيطالية وليس بالإنجليزية. وأيضًا يتضح هذا في إصراره على كتابة الأسماء الثلاثية، بطريقة متكررة. ويقول باريكو في تقديمه للرواية: «إن الرواية الجيدة هي ما تفرض على القارئ إيقاعها بمجرد أن يبدأها». وقد أراد أن تكون رواية مستر غوين ذات إيقاع بطيء رتيب، مثل إيقاع شخصيتها الرئيسية، ولذلك لجأ أيضًا إلى تقسيم الفصول إلى فصول قصيرة،

شبه متساوية في الطول. ويلفت نظرنا أنه في الجزء الأخير من الرواية عندما سيتعلق الحكي بشخصية أخرى، سيبدأ إيقاع الرواية في التغير.

ورواية مستر غوين تحاول بشكل ما أن تعبِّر عن شخصية المؤلف الذي يرغب في أن يبقى خفيًا، الذي يحب الكتابة ولكنه لا يحب الأشياء المتعلقة بالنشر والشهرة، ولذلك يلجأ أحيانًا إلى الكتابة باسم مستعار. ربما كان باريكو بشخصية غوين، الذي اختار أن يكتب باسم مستعار «لامرأة»، كما سيتضح في نهاية الرواية، يلقي الضوء أيضًا على الغموض الذي يحيط بالشخصية الحقيقية وراء كتابات إيلينا فيرانتي، التي عهد الكثيرون مؤلفاتها للكاتب الإيطالي دومينيكو ستارنونه Domenico Starnone، نظرًا إلى أنه من نابولي، وللتشابه الكبير بين اختياراتهما للألفاظ، ولكن لم يثبت هذا الأمر حتى الآن.

ولكن ما تثيره رواية «مستر غوين» بالفعل في بدايتها هي الضغوط التي يتعرض لها الكاتب، ويتضح ذلك من القائمة التي يضعها باريكو في بداية الرواية، للأشياء التي يعد نفسه بأنه لن يقوم بها قط. ولكن ما يتعرض له الكاتب من اكتئاب عندما يتخذ هذا القرار هو الشيء الذي يثير كثيرًا من التساؤلات، وربما يحاول باريكو من خلاله تقديم أسباب اتخاذ كتّاب مثل فيرانتي قرار إخفاء شخصياتهم الحقيقية. وفي إحدى العبارات الذكية، يعبِّر عن أن للكتب حياة بمفردها لا تعتمد على الكاتب في شيء، فهو ذلك التناقض بين رغبة المؤلف في الاعتزال بينما لا تزال مؤلفاته تحيا حياتها الخاصة، وتفرض عليه وجودًا في مساحة يحاول تركها بالفعل: «فقد اكتشف، مضطربًا إلى حدٍّ ما، أنه لم يكن فقط يرغب في ألا يؤلف كتبًا، ولكن لم يكن يرغب حتى في أن يكون قد كتبها. أي، أنه استمتع بتأليفها، ولكنه لم يكن يتمنى على الإطلاق أن تعيش رغم قراره بأن

يتوقف عن الكتابة، بل يضايقه واقع أن تلك الكتب، تسير، بقوة خاصة بها، إلى حيث وعد هو نفسه بألا تطأ قدماه أبدًا».

ولكن التعبير عن أهمية الكتابة أيضًا بالنسبة إلى من يحبها هي أنها ما تمنح المعنى لما يعيشه، وبالنسبة إلى شخصية غوين، أنه شعر بأن هناك شيئًا ما ينقصه «كان يعاوده باستمرار ذلك الاحتياج إلى أن يكتب، وافتقاد تلك العناية اليومية التي كان بها ينظم أفكاره في شكل مستقيم لعبارة». ويقول أيضًا: «أخذ يكتب ذهنيًا، بينما يسير، أو يستلقي فوق فراشه، والضوء مطفأ، منتظرًا أن يجيئه النوم. كان يختار الكلمات، ويبني العبارات. كان يمكن أن يحدث له أن يستمر لعدة أيام خلف فكرة بعينها، ويصل إلى أن يكتب في رأسه صفحات كاملة، كان يحلو له، بعد ذلك، أن يرددها، أحيانًا بصوت مرتفع».

الرواية في مجملها احتفاء بالكتابة وبالقراءة أيضًا، الاحتفاء بكل تلك الأفكار البسيطة وربما الغريبة بالنسبة إلى البعض، التي يمكن أن يستغرق المرء الساعات الطويلة في إعدادها للوصول إلى جو مناسب للتأمل، أو للكتابة، أو للرسم. ففيها سنتعرف على صانع المصابيح، الذي سيحتل مكانة مهمة في الرواية هو ومصابيحه، وعلى ذلك القارئ المتميز الذي يحتفظ في ذاكرته بما قرأه إلى حد أنه كان يعمل في دار النشر على قراءة المخطوطات ليتأكد الناشر أن ما يُقدم إليه هو عمل أصيل وليس مجرد نقل من أعمال أخرى.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفهرس

١. ..... ٥
٢. ..... ٧
٣. ..... ٩
٤. ..... ١٢
٥. ..... ١٣
٦. ..... ١٤
٧. ..... ١٦
٨. ..... ١٩
٩. ..... ٢٤
١٠. ..... ٢٥
١١. ..... ٢٦
١٢. ..... ٣٠
١٣. ..... ٣١
١٤. ..... ٣٤
١٥. ..... ٣٥
١٦. ..... ٤٣
١٧. ..... ٤٥
١٨. ..... ٤٩
١٩. ..... ٥٠

٢٠. ..... ٥٣
٢١. ..... ٥٥
٢٢. ..... ٥٨
٢٣. ..... ٦٣
٢٤. ..... ٦٨
٢٥. ..... ٧٤
٢٦. ..... ٧٧
٢٧. ..... ٧٩
٢٨. ..... ٨١
٢٩. ..... ٨٢
٣٠. ..... ٨٤
٣١. ..... ٨٥
٣٢. ..... ٨٧
٣٣. ..... ٨٩
٣٤. ..... ٩٢
٣٥. ..... ٩٤
٣٦. ..... ٩٦
٣٧. ..... ١٠٠
٣٨. ..... ١٠١
٣٩. ..... ١٠٣
٤٠. ..... ١٠٥
٤١. ..... ١٠٧
٤٢. ..... ١١١
٤٤. ..... ١٢٠
٤٥. ..... ١٢٤
٤٦. ..... ١٢٦

٤٧. ..... ١٢٨
٤٨. ..... ١٢٩
٤٩. ..... ١٣٢
٥٠. ..... ١٣٦
٥١. ..... ١٤٠
٥٢. ..... ١٤١
٥٣. ..... ١٤٣
٥٤. ..... ١٤٥
٥٥. ..... ١٤٨
٥٦. ..... ١٤٩
٥٧. ..... ١٥٣
٥٨. ..... ١٥٨
٥٩. ..... ١٦١
٦٠. ..... ١٦٣
٦١. ..... ١٦٤
٦٢. ..... ١٦٦
٦٣. ..... ١٦٩
٦٤. ..... ١٧٤
٦٥. ..... ١٧٥
٦٦. ..... ١٨٠
٦٧. ..... ١٨٠
٦٨. ..... ١٨٩
خاتمة المترجمة ١٩٣

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة

هذا الكتاب

telegram @t_pdf

في أثناء سيره في ريجينت بارك، في طريق يختاره دائماً، بين الطرق الكثيرة ـ شعر جاسبر غوين فجأة بوضوح بأن ما يفعله كل يوم ليكسب عيشه لم يعد مناسباً له. كانت تلك الفكرة قد خطرت له بالفعل مرات سابقة، ولكن لم تكُن قط بهذا الصفاء وكل هذا اللطف. وهكذا، عاد إلى المنزل وأخذ يكتب مقالة، طبعها، ثم وضعها في مظروف، وأخذها بنفسه، وهو يعبر المدينة إلى إدارة تحرير «الجارديان». كانوا يعرفونه. من حين لآخر كان يتعاون معهم. طلب منهم أن ينتظروا أسبوعاً قبل أن ينشروها.

الغلاف : سكينة صلوَن

ISBN 978-9922605388

9 789922 605388